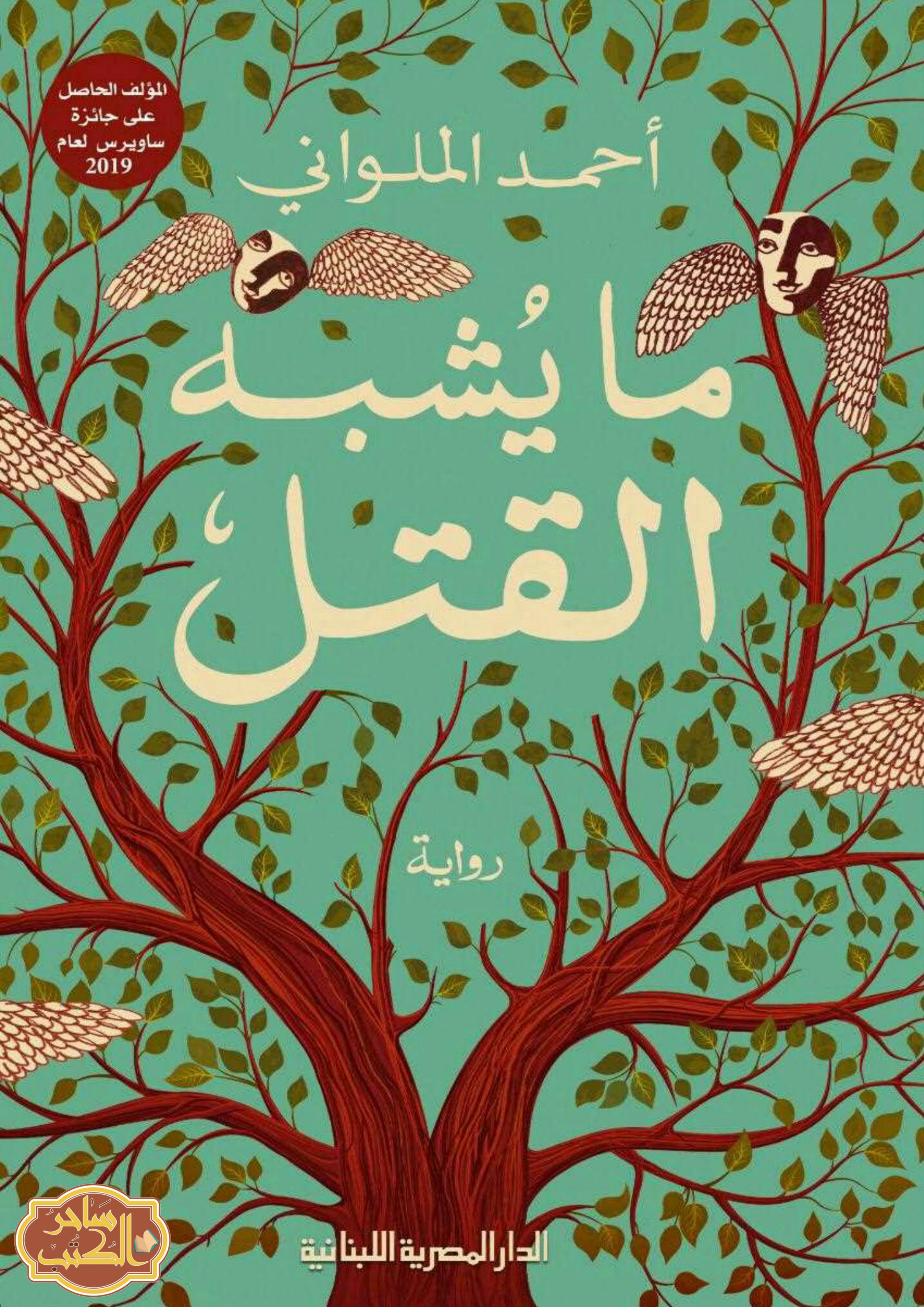


المؤلف الحاصل
على جائزة
ساويرس لعام
2019
أحمد الملواني
ما يُشبه
القتل
رواية
الدار المصرية اللبنانية
ساحر الكتب



ما يشبه القتل

رواية

الملواني، أحمد.



هي حكاية عن رجل في حقل قمح بعيد، يتحول الآن ـ ومنذ عشرات السنين ـ إلى شجرة. عملية بطيئة ومملة؛ في كل نهار يتمازج أكثر بطين الأرض، وتعلو قامته المتخشبة نحو السماء مقدار عقلة إصبع، فيتمدد بصره، ويزداد حكمة. في يوم ما؛ ربما لم يزل بعيدًا، وربما أقرب هو مما نتخيل؛ سيكتمل تحوله، ستتسرب منه الروح، ويصبح شجرة مكتملة، مجرد شجرة بكماء، لا تعرف كيف تنقل حكمتها للآخرين.. عندها سنكون قد فقدنا الفرصة.

مفتتح

الرجل ليس قديسًا، ولا وليًا صالحًا.. مجرد فلاح شاب، بشارب لم يزل يحفر طريقه. في نهار حارق، أسلم أفكاره وأحلامه وحتى روحه، لإلحاح أمه المثقلة بغضب صامت يطمس عقلها في النهارات، ويحجب ملائكة النوم عنها في المساءات؛ وزوجته الخائفة من مستقبل يبدو مرسومًا بتهديدات سوداء، قد تذهب عنها قدرًا من النعيم الذي طالته ـ وهي ابنة الأجير على باب الله ـ في بيت زوج ما كانت تحلم بمثله. الأب قرر الزواج بصبية تصغر ابنه، الأم تصب اللعنات وتتهمه بالخرف..

سيخلق لها في حكايات الناس ضرّة، ويجعلها في أمثالهم: "القديمة".

زوجة الابن تنظر لما قد تحمله الزيجة من وعود بأبناء ذكور جدد، يشاركون زوجها الإرث المنتظر.



الابن كممسوس بلا حول ولا قوة، يصحو ويبيت في المأتم المنصوب دومًا في الدار، من وراء ظهر الأب.

كبرى المرأتين تندب حظها وضياع هيبتها، وتعكُّرَ سيرتها ـ المنتظر ـ على الألسنة، وصغراهما تندب بلادة زوجها، العاجز عن منع أبيه من ارتكاب تلك الحماقة. ستضيع الأرض، ويضيع الإرث، ولا يعلم الله إلى أي مدى قد تغويه ساحرة صغيرة حسناء، فتتسلط على عقله العجوز، فلا ينال ثلاثتهم من عزه سوى روث الزريبة! لابد من منعه بأي ثمن؛ هكذا نطقتاها المرأتان، وهكذا كانت تتردد في عقل الابن، وهو يضرب الأرض بفأسه، وتضرب الشمس رأسه، لتغلي الأفكار السوداء وتعيد إليها صفاءها وبكارتها، بغير ملوثات أو شوائب من رحمة، أو تعقل.

يرفع رأسه وينظر إلى هناك، حيث البعيد، وصخب معتاد يحمل صوت مئات النوارس ـ التي لا يراها ـ وكأنما تهمس في أذنيه أن يفعلها. والأب كأنما يقرأ ما في الرأس المنهك بشبابه، فيشد قامته، ويريح الكفين المتشققتين على فأسه المنتصب، ويقول:

ـ "هو حق الأرض يا بني.. أنا لست عجوزًا شرهًا للنساء، وإنما الأرض تريد حقها في الولد.. الأرض منحتني كل شيء، وأنا بخلت عليها طويلًا، ولم أمنحها سواك".

الفأس يضرب الأرض، والشمس تضرب الرأس، والنوارس تصرخ، واللسان يحمل الكثير فيعجز عن النطق، والأب كأنما يحسم التردد، يقول:

ـ "اضرب يا ولدي.. اضرب بفأسك".

الفأس يضرب الأرض أقوى، والشمس لا تترفق بالرأس..

ـ "اضرب بفأسك.. الأرض تنتظر ضربتك".

الفأس يضرب الأرض، والرأس تضربها الشمس ويضربها الجنون.

ـ"الأرض تنتظر منك يا ولدي ضربة أخيرة لتحيا".



الفأس يضرب الرأس، والجسد العجوز المنهك بحسرته يضرب الأرض، فيتلقفه الطين حنونًا.

كانت لحظة للندم، فبكى الابن.. العقل أبى أن يطول البكاء، فكان عليه أن يسوق السكرة بعيدًا، ويدرك صاحبه بالفكرة التي تشعل في القلب خوفًا. الحقل شاسع ممتد، على مرمى البصر
لا شاهد على الجريمة. الفأس عاد يضرب الأرض أقوى وأسرع، وكل ضربة يفغر القبر فمًا أوسع. لا يعرف الابن أن في دين الأرض، كلما توغل في حفر الطين ارتقى؛ لكنه كان يتوغل أكثر فأكثر، وكأنما يريد ـ بلا وعي ـ أن يدفن قتيله في السماء.. في النهاية، تمدد الجسد في مثواه ـ وأصوات النوارس البعيدة تنعيه ـ وعاد الطين يستوي فوقه، وعاد الشاب إلى أحضان امرأتيه، تطعمانه وتغسلان عن جسده جريمته.

لكن النوم في أحضان زوجته ما عاد يرضيه، والبكاء على صدر الأم الحنون فقد سحره.. في داخل الولد احتراق لمجهول لا يعلمه. يعود إلى الأرض في المساءات، لا يكاد يغادرها، حتى يجرفه النداء إليها؛



ليتمرغ في طينها. هناك كان يسمعها.. صوت الأرض، كصوت أبيه، يناديه: "يا ولدي". الزوجة صارت بعد أيام تناديه: "يا خائب"، والأم صارت ـ بعد يأس ـ تناديه: "يا موكوس!"، فما بقيت له سلوى في غير الأرض.. هناك كان يبكي قتيله، صخب النوارس صار ـ في أذنيه ـ عويلًا، والطين يهمس له:

ـ "لا بكاء على المكتوب".

فيصرخ:

ـ "أرني الطريق".

فيعاود الطين قوله:

ـ "لا بكاء على المكتوب".

فيغرس في الطين كفيه في مصافحة مرتجلة.. ينبطح في شبه عناق، ويقول:

ـ "غفرانك".



فيبتسم الطين ويحتضن الكفين، ويقول صوت الأب:

ـ "أنت مني؛ معًا سيكتب لنا الكمال. أنت زرعتني، وأنا أثمرتك".

لحظتها أبى الطين أن يفارق الكفين، فكان الغرس الأول، وكانت بداية التحول إلى شجرة الحكمة.

***

الرحّالة

العجوز يحكي

ماذا أفعل هنا؟!

كانت تسليتي في جلساتي الفردية - على الطاولة الخشبية المختبئة تشققاتها تحت غطاء من مشمع، تعلوه علامة تجارية لماركة بيرة محلية الصنع، في البار الشعبي في ركن من وسط البلد - أن ألقي على نفسي هذا السؤال. ليست عملية بحث وجودية، وإنما بحث منطقي عن إجابة أفضل عن السؤال، الذي طالما ظننت أن كل الجالسين حولي ـ بين سُكر، وشبه سُكر ـ يتمنون سؤاله: ماذا يفعل رجل ذو مكانة مثلك في هذا البار الفقير؟. حسن التدبير هداني إلى جواب متعلق بطبيعة المثقف الشعبي العاشق للاختلاط بالناس، عن الإلهام الساكن في مثل تلك الأماكن الشعبية العتيقة، المفعمة برائحة من زمن جميل، عن التشرب بعرق الشقاء الناضح من جلود الكادحين.. كلمات كبرى كنت أتوق لفرصة جدلها وتعليقها على الآذان الشغوفة



لحكمتي، ولكنني في أوقات قليلة تتخلص روحي فيها من قيد الادعاء، أجد نفسي أتساءل حقًّا: ماذا أفعل هنا؟!

صوت أغنية يونانية ينبعث من جهاز كاسيت قديم. مؤسس البار، ذلك الرجل اليوناني الذي تحمل اللافتة الباهتة اسمه، مات منذ زمن، ولكن لسبب ما يصر صاحب البار المصري على حق البار في الحفاظ على يونانيته. كل شيء هنا لم يزل متمسكًا بقدمه، كفجوة في مسار الزمن ـ أهذا ما يدفعني لارتياد المكان؟ ـ باستثناء صورة لرئيس الجمهورية، عبارة عن بوستر دعائي من حملته الانتخابية، التي انتهت بنجاح ساحق منذ زمن؛ وجدتني، وأنا أشعل سيجارة، أتساءل عن سبب وجودها هنا. جلستي أمام الصورة، وبيننا زجاجة بيرة رديئة، أعادت إلى عقلي ذكرى شبحية من رواية مترجمة قرأتها أيام الجامعة. حاولت أن أستعيد أية تفصيلة أخرى ففشلت.. لا أذكر سوى مشهد مضبب للبطل جالس في مقهى يتأمل صورة الزعيم، قبل أن

يكتشف أنه يحبه. أفكاري أسلمتني لسؤال: هل أحبه؛ أنا الناطق بلسانه؟.

دون الإجابة، رفعت الزجاجة وأتيت على نصفها في رشفة واحدة.. أنزلتها عن فمي، فوجدتني لأول مرة أتساءل: هل أنا غير مرئي؟ لماذا لم يندهش أحد من الحضور لرؤيتي؟ أو يسألني عما أفعله هنا؟ فجأة تجلت تلك الحقيقة لعقلي بعد شهور من ارتياد متقطع للمكان؛ هل هم قوم خجولون كما كنت أقنع نفسي؟ أم أنهم ببساطة ـ كحقيقة مخيفة ـ لا يعرفونني؟!

في لحظة عدم احتراس، وجدت النادل أمامي، فناديته.. راوغ الطاولات شبه المتلاصقة، بجسد نحيل أحنى ظهره تقدم العمر، تترجرج حول خصره سترة بيضاء واسعة وكأنها لا تخصه، أو ربما خصته يومًا في شباب بعيد.

وقف أمامي بابتسامة تأدب معهودة منه، وقال:

ـ "تحت أمرك".



سألته مندفعًا:

- "هل تعرف من أنا؟".

اتسعت ابتسامته وأجاب:

- "رأيتك كثيرًا في التليفزيون.. حضرتك صحفي على ما أعتقد".

لم تكن إجابة ترضيني؛ هو لم يعرف اسمي الذي يزين مقالًا يوميًّا من نصف صفحة، في جريدة تكبره عمرًا، ولا صفتي كرئيس تحرير جريدة حديثة، تتوهج في العصر الجديد. رغم الإحباط تماديت..

- "ألم تتساءل يومًا عما أفعله في هذا المكان؟".

النادل لم يندهش، أظنه معتادًا حوارات السكارى المشجونة تلك؛ لذا، قال بحياد:

- "لكل منا أسبابه".

لم ترضني الإجابة.. ربما أغضبتني. كنت أنتظر أن يرد عليّ سؤالي، فأجيبه بما أعددته.. قلت مواصلًا إلحاحي:

- "أتعرف أني ارتدت أفخم البارات في العالم، وتذوقت أرقى أنواع الخمور؟ لكني أحب هذا المكان".

وكأنما يعاندني؛ لم يسألني عن السبب.. فقط هز رأسه وقال:

- "سبحان الله!".

وكأنما يتعمد إغاظتي.. أغضبني؛ لكنه أثار كذلك شغفي لشيء ما.. ربما هي الحاسة الصحفية تتقد الآن. قلت له:

- "لماذا لا تجلس لنتحدث قليلًا؟".

ابتسم وأجاب بسؤال كاف:

- "وماذا عن عملي؟".

لم ألجأ لإلحاح جديد.. تحدثت باستسلام:

- "معك حق؛ ربما أنا فقط بحاجة لجليس الليلة".

بخبرته قال:

- "ربما أنت بحاجة لما هو أقوى من البيرة".

أخرجت من علبة سجائري سيجارة دسستها في يده، وأنا أقول:

- "البيرة كافية. أنا لا أضمن جودة خموركم الأقوى".

وضع السيجارة خلف أذنه اليمنى.. وكما لم أتوقع منه؛ قال:

- "سأنهي دَوامي بعد ساعة.. إن كنت لم تزل هنا، ربما أجلس معك قليلًا".

ابتعد قبل أن يطاله مني رد، وكأنما حالة روتينية يعتادها. حيادية كلماته مبهمة، فلا أعرف إن كان سعيدًا بعرضي، يحاول - باقتراحه - اغتنام شرف

مجالستي، أم هي كلمات آلية تعمل تلقائيًا لمواجهة الزبائن اللحوحين مثلي؟ أخذني التأمل ـ التخيلي ـ لما هو في رأسه ومشاعره تجاهي، حتى مرت الساعة دون أن أشعر.. أو ربما شعرت وادعيت أن الشرود منعني عن إدراك حقيقة بقائي في انتظاره.. حقيقة حاجتي إلى مجالسته ومحاورته. اشتقت كثيرًا للتحاور الصاخب، وللتفتيش داخل منحنيات الأنفس البشرية، واستقراء ما خفي وراء الكلمات والأحرف، منذ أن كنت صحفيًا شابًا مجتهدًا، في مرحلة ما قبل التحقيقات المفروضة، والنشرات الإجبارية، والحوارات الموضوعة سيناريوهاتها سلفًا.

بعد تمام الساعة، وجدته يجلس أمامي، وفي يديه زجاجة بيرة وكوبان نظيفان، وطبق فستق من النوع الرديء، الذي يصلح كعلاج للإمساك أكثر من صلاحيته كمزة للخمر! هيئته بعد أن خلع ملابس العمل كانت مزرية؛ كنزته مهترئة عند طرفي الكمين، وحدود فتحة الرقبة، ياقة قميصه مصفرة الحافة، وفي بنطاله نقرة ـ من شرارات السجائر ـ كبيرة لدرجة، مكنتني من

ملاحظتها أثناء اقترابه من الطاولة. حتى شعره كان غير مرتب، ربما بعثره عبور الرأس من فتحة الكنزة الخانقة.. قال وهو يرص حمله فوق الطاولة:

- "على حسابك طبعًا".

أهذا هو سبب إقباله على مجالستي إذًا؟ للفوز بكوبين من الشراب المجاني قبل المغادرة؟ رغم الغيظ، لم أعلق. كنت أعتقد أن مجالستي هي ما يجب أن تقدر بالأموال، لا مجالسة هذا الوضيع، ولكنني قدرت أن ما يطلبه ثمن مقبول لمقال، قد أخرج به من هذا الفم الملفوف بتجاعيد الخبرة، مقال يشحذ قدراتي الصحفية الحقيقية، وينقذها من تمام التآكل.

- "ما اسمك"؟.

هكذا سألته، فأجاب بعد أن نزع الغطاء عن زجاجة البيرة بأسنانه:

- "صبحي".

ـ "كم عمرك؟".

ابتسم، وكان يصب من الزجاجة في الكوب الذي أمامي:

ـ "اثنان وستون عامًا".

ـ "كم لك من عمر في هذه المهنة؟".

تمهل في إجابته هذه المرة، حتى انتهى من ملء كوبه، وأخذ منه رشفة، فبدت على ملامحه أمارات الرضا عن الكون.

ـ "هل هو حوار صحفي؟".

هززت رأسي بسرعة، مستبقًا ظنونه ـ المنطقية ـ نحو الرفض:

ـ "بل دردشة".

قال، وهو ينزع القشرة عن حبة فستق:



ـ "الدردشة يفترض أن تبدأ بالتعارف، وحضرتك لم تعرفني باسمك".

لا أعرف إن كان الغيظ صعد ـ أم لا ـ إلى ملامح وجهي، وأنا أقول:

ـ "أنا بدر الوكيل.. صحفي كما تعلم".

هز رأسه مؤيدًا قولي، قبل أن يسأل:

ـ "كم عمرك؟"

ابتسمت مخفِّفًا نبرات الغضب في صوتي:

ـ "الآن أنت من يحقق معي".

كان جادًّا، وهو يقول:

ـ "هكذا تجري الأمور، أنت من جئت إلى هنا بحثًا عن السلوى، أنت إذًا من عليه أن يتكلم. مثلًا: لماذا جئت إلى هنا؟ ولماذا قررت الليلة تحديدًا أن الصمت المعتاد غير مناسب لك؟".

لم أدر لمَ استسلمت فجأة لانفلات القول:

- "شيء ما حدث الليلة".

ألقى حبة فستق في فمه، وابتسم منتصرًا:

- "أرأيت؟".

لكنني أدركته:

- "شيء لا أستطيع حكيه.. شيء أفضّل - في الحقيقة - أن أنساه".

هز رأسه متفهمًا، مدعيًا مظهر الحكمة، وهو يقول:

- "وتعتقد أن النسيان في بار متواضع أفضل من النسيان في بارات النجوم الخمسة؟".

ابتسمت مقتنصًا الفرصة المنتظرة طويلًا:

- "إن كنت تجدها غريبة، فلماذا لم تسألني يومًا عما أفعله هنا؟ أو حتى تبدي دهشة؟".



أجهز على كوبه دفعة واحدة ـ وكأنما يتأهب للعرض الكبير ـ قبل القول:

ـ "لأنني أعرف".

ـ "تعرف ماذا؟!".

خبط بقبضة مضمومة على الطاولة، محدثًا دقة مكتومة، بين كل جملة والأخرى، في قوله:

ـ "ما تريد أن تنساه مرتبط بكينونتك.. أنت في الحقيقة لا تريد أن تنسى حدثًا محددًا، أنت تريد أن تنسى من تكون، وهذا لن يتحقق سوى هنا. في بارات الخمسة نجوم ستجد المئات من بني قومك، وممن هم على شاكلتك، ومن المستفيدين من منافقتك، وممن قد تضطرك المصلحة لمنافقتهم.. أنت هنا حر، بين قوم لا يعرفونك، أو ربما يعرفونك، وإنما لا حاجة لهم عندك".

رفعت عندها كوب البيرة للمرة الأولى والأخيرة، وضعته على الطاولة فارغًا كعقلي في هذه اللحظة. لم أجد قولًا سوى بعد عناء تدبر، بدا لي وكأنما استمر

قرونًا.. قلت، وأنا أشير بسبابة ممدودة بعشوائية إلى كل أركان البار:

- "أتعتقد أن من بين هؤلاء من يعلم بوجود رجل مثلي بجواره،
فلا يزعجه بطلباته أو يسعى لوساطته عند أولي الأمر مثلاً؟!".

ضحك النادل.. بشكل ما، بدا حريصًا على أن يظهر في النبرات ما يخالط الضحك من مشاعر شفقة:

- "نحن نعرف - بالمناسبة - من أنت منذ أن اجتزت باب البار للمرة الأولى. ربما غاب عنا اسمك، أو صفتك العملية، لكننا نعرف ما تمثله، والمكانة التي تعتليها. وأهم ما نعرفه أنك لا تمثلنا نحن.. أنت لست طريقنا إليهم، بالعكس، أنت طريقهم إلينا. أنت طريق ينحدر باتجاهنا، لن نلقى من محاولة السير فيه سوى جهد الصعود المستحيل".

لحظتها عجزت عن الرد.. أعترف أني عجزت تمامًا عن الرد. لكن ما تعلمته من أصول المجادلة يحتم عليَّ أن أرد؛ لذا قلت، وأنا أعي وقاحة الكذب في كلماتي:

- "وهل يبدو لك رجل في مكانتي يمكن أن تصبيه حيرة حول كينونته؟".

مط الرجل شفةً سفلى، تدعم انطفاء التماعة عينيه بفعل الحيرة، ثم قال:

- "أنا لم أجرب مكانتك، ولا أعرف أحدًا جربها.. لكن أعرف أن كل الجالسين وحيدين حولك أتوا للسبب نفسه.. لا يهم دافعك للتساؤل، ولكن بالتأكيد.. في أي روح، وفي أية حياة، دافعًا للتساؤل ذات يوم: من أكون؟".

كانت كلماته مؤثرة لدرجة أعجزتني عن أية مقاومة.. كل الطرق سدَّت أمامي عدا طريق الاستسلام. فجأة وجدتني أنظر إلى نفسي في مرآة فائقة الجودة، أتساءل غير مبال بالدماء التي يسيلها السؤال: كيف

ظننت، ولو لوهلة، أن الحياة ستستمر بي بعد ما وقع الليلة؟! كيف أفكر وأحلم بعقل رجل السلطة القوي، بعد الامتهان الذي صار؟! فكرت لوهلة ـ متجاهلًا وخيم العواقب ـ أن أحدثه بما جرى الليلة، ولكني انحزت للقول الذي انزلق عفوًا إلى لساني:

ـ "ولكن سؤالي هو: ما أكون؟".

هز رأسه قائلًا:

ـ "سؤال يحتاج مزيدًا من الحكمة".

ابتسمت مشفقًا على ذاتي، التي أدرك الآن مدى هشاشتها:

ـ "وأنا لا أملك ذرة منها".

فجأة نهض من مكانه، أعاد الغطاء إلى زجاجة البيرة وحملها بيد، وهو يميل على أذني هامسًا:

ـ "أتعلم أين تجد الحكمة اللازمة؟.. الكثير منها؟.. كنز من الحكمة يوشك أن يفنى، دون أن يعبَّ منه أحد؟".

نظرت إلى احمرار عينيه من تلك المسافة القريبة، ولم أعلق إلا بهزة رأس متسائلة، فأجاب بالهمس ذاته:

- "في حقل بعيد.. حقل لم يزل خصبًا ولودًا، هناك رجل يتحول منذ عشرات السنين إلى شجرة. في كل يوم تمتد جذوره في عمق الأرض أكثر، وتعلو هامته المتخشبة إلى السماء أكثر، فينكشف له المزيد بين الأزمان والأماكن، فيزداد حكمة.. لكن في يوم ما، سيكتمل تحوله، ويصبح شجرة بكماء مغلقة على حكمتها، بلا قدرة على نقلها إلى الناس".

كان في الصوت تأثر جذبني إلى كلماته، رغم بخار التخمر المنبعث من فمه.. سألته، وكنت أقصد أن تكون عبارة تقريرية:

- "هذه أسطورة؟".

نفى بإيماء الرأس، ثم بالقول:

- "بل حقيقة".

قلت له:

- "حدثني بالمزيد".

واصل انحناءه على أذني والهمس، حتى أتم حكايته عن الولد الذي قتل أباه ودفنه في الأرض، فاستحوذت عليه الأرض. سؤالي عند نهاية الحكاية كان:

- "وأين هي تلك الشجرة؟".

اعتدل في وقفته أخيرًا.. ابتسم وقال:

- "لو كنت أعرف لما أخبرتك عنها، ولو كنت أملك مفاتح دروب البحث لسلكتها. لكني نادل مسكين بلا حيلة، أما أنت فقادر على الوصول".

ببساطة، حمل الزجاجة نصف الممتلئة واستدار مبتعدًا.. وبالبساطة ذاتها عاد - بعد خطوتين - يلتفت نحوي ويقول؛ بلا اكتراث لعلو الصوت:

- "وعندما تبلغها؛ تعال لتدلني إليها".

***

وضع أمامي أطباق الطعام وبضعة أرغفة، وجلس عبر المائدة يتأملني صامتًا.. لا أفهم كيف تتماشى نظرات كتلك ـ وفي العينين ما يشبه الكراهية ـ مع أفعال الحفاوة التي لقاني بها على عتبة بيته الفقير. حفاوة لم يلوثها سوى تساؤل عن كيفية معرفتي بعنوانه الجديد، أعقبه إجابة مقتضبة مني تذكره أننا نعرف كل شيء!

ـ "تفضل، لقمة بسيطة".

اقتسم رغيفًا، وسبقني إلى الطعام مشجعًا، فتبعته مرحبًا. كنت جائعًا بعد يوم، لم أتذوق فيه سوى البيرة الرديئة في البار اليوناني؛ حتى الفستق لم أقربه. ابنه دخل علينا بزجاجة ماء وكوبين، وضعهما أمامنا وانصرف دون أن يرفع بصره عن الأرض، كعذراء خجول. الولد كان نحيفًا جدًا، وجهه مصفر، وكأنما يعاني من مرض ما، وبقيت منشغلًا بمحاولة تذكر

اسمه، ثم منشغلًا أكثر بمحاولة تذكر إن كنت أصلًا أعرف اسمه أم لا!

- "ما به الولد؟".

توقف عن الأكل مستفهمًا..

- "ما له؟".

- "يبدو مريضًا".

عاد إلى طعامه بغير اكتراث..

- "داهية تأخذه!".

لم أعلق.. بحكم الصداقة، أعرف أنه شديد في معاملة وحيده. ووصف (الشديد) في الغالب هو تدليل لوصف (القاسي). أعرف أن هذا الولد كان سببًا في توتر صداقتنا - هل سبق وأخبرني باسم ابنه الوحيد ذات يوم ونسيته، أم أنه لم يخبرني قبلًا؟! - حتى أني لم أزل أسأل نفسي، وأنا أشاركه عشاءه: ماذا أفعل هنا؟ لماذا اخترته دون سواه لألجأ إليه؟ منذ أعوام طلب



وساطتي لإلحاق ابنه بكلية الشرطة، حكى لي عن اللواءات الذين أداروا له ظهورهم، ربما لأنه تقاعد وما عادت له أهمية، رغم أنه كما أكد لي:

- "أعرف عنهم ما يرميهم في السجون".

كان يجالسني في مكتبي في الجريدة، وكنت متعجرفًا بشكل ما، متعجلًا إنهاء اللقاء؛ فلا هيئته، ولا صفته، كصول متقاعد في الشرطة، يؤهلانه لمكانة مجالستي في هذا المكتب الفخم في الجريدة العريقة. بعته بعض الكلمات والوعود المائعة لأصرفه، ثم نسيت كل شيء عنه وعن زيارته، حتى التقيته بعد عامين مصادفة، فعاتبني واتهمني بالتعالي. كانت صداقتنا تسمح بقدر من العشم والتوقعات الحسنة، ولا أفهم لماذا، ولا كيف، تقوم صداقة بين سجين وسجّانه.. لكنه كان أمرًا في ماضٍ بعيد لم أزل أتناساه.

في هذه اللحظة، وفي تلك الليلة التي لم تزل تفتح في عقلي الكثير من المسارات المغايرة، أجدني أتساءل إن كنت صادقته لإتمام إعلان تحولي من

معارض، إلى عبد للنظام. وهل هناك إظهار للولاء، وإعلان للندم عن أيام الضلال، يفوق صداقة غير متوقعة، أقيمها مع السجان الذي أذاقني العذاب في معتقلهم؟! هل من تماهٍ في المعبود أكثر من تقديس أداته لتعذيب العصاة، الذين كنت منهم في شباب بعيد؟! خاصة وأني بالفعل سعيت للقائه، والتقرب منه.. وهو كان هدفي الحقيقي من التحقيق الصحفي، الذي عرضت فكرته على رئيس التحرير في ماض بعيد؛ تحقيق مع نموذج من السجانين، الذين يفنون أيامهم وصحتهم في مهنة شاقة تعفُّ عنها النفوس، لكنها مهنة مهمة، ولا غنى للدولة عنها؛ هذه تحديدًا كانت الكلمات التي افتتحت بها الحوار المنشور في الجريدة مع الصول عبد النبي السجان، والذي اخترته كمادة للتحقيق لأسباب لا يعلمها غيري.

منذ هذه اللحظة بدأت علاقتنا وتطورت.. وحتى هذه اللحظة التي أجالسه فيها في بيته، لم يعلم عبد النبي أني قبل هذا التحقيق الصحفي بثلاثة أعوام، كنت نزيلًا في سجنه، ألقى العذاب على يديه!

- "ما بك أنت؟".

سألني عندما لاحظ شرودي؛ فهل أخبره؟ إن كنت قررت اللجوء إليه، فكيف لا أخبره؟ على الأقل لاكتساب تعاطفه المفقود. لكن هل يمكن لشخص مثله أن يتعاطف مع موقف؟ هل يمكن أن يتفهم دوافع فعلي، أو بمعنى أدق؛ لا فعلي؟! أم إنه سيحتقرني ويزدري خنوعي وضعفي أمام صفوت بك؟

- "سمعت الليلة حكاية تشغلني.. حكاية عن رجل في حقل بعيد يتحول إلى شجرة.. رجل يمتلك الحكمة الكافية لإجابة حيرتي".

سألني:

- "وما الذي يحيرك؟".

وطأت سؤاله بتساؤلي:

- "هل سمعت تلك الحكاية من قبل؟".

ابتسم..

- "لا تتخيل كم الحكايات التي أريقت أمامي طوال أربعين عامًا من خدمة الوطن.. السوط والعصي وأنياب الكلاب تريق الحكايات كما تريق الدماء".

أثارتني كلماته..

- "حدثني عن تلك الحكاية تحديدًا".

- "سمعتها مرة من ولد من محافظة شمالية.. لا أذكر سوى لهجته الريفية.. لا أذكر حتى جريمته.. لكن في حكايته لم يكن ثمة رجل.. بل كانت شجرة الحكمة تنطق وتجيب تساؤلات الحائرين".

- "ألم يخبرك بمكانها؟".

- "قال إنها قرب نهاية النهر.. في حقل تسمع عنده صخب نوارس البحر.. حقل قمح واسع، لا شجرة به سواها.. لكنها لا تنطق إلا لمن يستحق".

عاد إلى طعامه، وبفم مملوء، أضاف:

- "لكنها مجرد أسطورة".

- "وما أدراك؟".

- "لأنه لو كان ثمة شيء كهذا، لكنّا أول من علم به.. لو لهذه الشجرة وجود، فكيف لا يعلم بها صحفي كبير، له مكانتك وسط رجال السلطة؟!".

كلماته أصابت مقتلي، ففكرت من جديد أن أخبره؛ ليعلم حقيقة مكانتي التي تغبطني نبرات صوته عليها. فكرت أن أعتذر له عن تقاعسي عن مساعدته حين أتاني لاجئًا، على الأقل لأسكت ضميرًا يلومني على إتيانه هو تحديدًا لاجئًا بعد أن خذلته.. لم يزل ترددي يغلب وعيي، فيطيل شرودي، فيسأل:

- "ما وراءك؟ تكلم كما تشاء.. نحن أصدقاء قدامى".

كان ينفض يديه من الطعام.. أراحتني كلماته، رغم حيرتي في دلالة وصفه (قدامى)، فلا أعرف إن كان يقصد بها طول زمن الصداقة، أم يقصد انجلاء زمنها.. لكنني رغم هذا سعدت بالقول، لدرجة فتحت منفذًا للبوح، فتكلمت بمقدار ظننته ملائمًا:

ـ "اليوم اكتشفت أني غير مرئي.. مشيت في الشوارع، ركبت مواصلات عامة، جلست في أماكن مفتوحة.. وكنت أظن أيادي الناس ستمتد نحوي للتبرك.. لكن، لا شيء.. لم يميزني أحد.. ربما حتى لم يروني.. حدثتهم فلم يجيبوني، ألقيت التحيات على ناس لم يردوا، ولوحت بيدي لناس، أشاحوا بوجوههم.. عدا نادل عجوز في بار منكر للرعاع".

أنهيت كلامي بتساؤل، يهدف دفع معاناتي إلى أغوار مشاعره المتيبسة:

ـ "أتشعر بي؟ أتفهم ما أمر به؟".

ابتسم، وكأنما قرر أن يفرج عن بوحه كجواب لبوحي:

ـ "تمامًا كما احتجتهم، فأداروا ظهورهم لي.. وكما احتجتك أنت، فأدرت ظهرك لي".

أحزنني ذكره للماضي، فاعتذرت:

ـ "آسف.. أنا لم أكن...".

لا أذكر إن كان قاطعني أم أني توقفت عجزًا، لكني لم أزل أحفظ منطوق كلماته التالية:

ـ "لا تأسف.. أنا لست طفلًا.. أنا واحد منهم.. وأعرف أنهم مطبوعون ـ بغير إرادة ـ على تصرفات كتلك.. إن خالفوها، فلن يعودوا هم!".

لكنني لست منهم. أو هذا ما أدركه الآن. كما أدرك لماذا صادقت الصول عبد النبي. لأنه مثلنا ـ وأقصد بصيغة الجمع في (مثلنا) ما كنت عليه، ومن كنت منهم ـ سجين بشكل ما.. هو أداة مهملة رغم أهميتها.. ينام مثلنا في السجن، يأكل ويشرب ويقضي حاجته داخل الأسوار ذاتها، وخلف أبراج الحراسة ذاتها، وإن اختلفت شكل الزنزانة.. وحين جاءه أمر نقله إلى أمن الدولة هاتفته مازحًا:

ـ "كفارة".

لكنني أدرك الآن أنها كلمة حملت من معاني الحقيقة أكثر بكثير مما حملت من مزاح.. كم نحن متشابهان يا



عبد النبي، أيها الشيطان السابق.. ملفوظان مِن حلفائنا إلى عالم الأعداء، فهل لنا من توبة أو نجاة؟

قلت له في ختام القول، وقد اتضحت أمامي كل الصور، وسقطت كل الأحجبة، وعرفت ما أنا قادم عليه:

ـ "لقد قررت أن أختفي".

***

الولد يحكي

فتحتُ الباب، فأشرقت في وجهي ابتسامتها.. ارتبكت لظهور ياسمين غير المتوقع على عتبة بابي، كفتاة ذكية، فهمت سبب ارتباكي.. أثق أنها فهمت؛ لكن كفتاة شقية قالت:

ـ "تبدو وكأنك تخبئ فتاة بالداخل".

جذبتها من ذراعها لتدخل مسرعة، أغلقت الباب خشية أن يراها أحد، وأنساني الارتباك أني أحيا وحيدًا في البناية كلها! توغلت إلى قلب البيت، قالت:

ـ "أين تخبئ الهانم؟".

ربما يشي تكرار المزحة بكونها ليست مزحة تمامًا.. ربما هي تتخيل ـ كما يتخيلون جميعًا ـ أن الأعزب الشاب، المتوحد في بيت "طويل عريض" ـ كما يصفونه ـ لابد وأن يحوِّله إلى وكر لكل المفاسد، التي تجرح ورع ناس الحارة الأتقياء.



ـ "أنتِ أول فتاة تدخل هذا البيت منذ وفاة والدي.. وهذا يعني أنك أول فتاة تدخل هذا البيت منذ خلقني الله!".

ـ "لا تبدو سعيدًا بهذا".

لامست شفتي بأطراف أناملها محاولة نحت ابتسامة.. باغتُّها بالحقيقة..

ـ "أنت هنا لست في مجتمعك المرفه.. هنا لا تزور الفتيات أخلاءهن في بيوتهم. قبل زيارتك، كان كل الجيران يظنونني شابًّا عابثًا كما يليق بعزب وحيد.. الآن هم باتوا واثقين".

ابتسمت. لم تمض معي في مسار الحديث، عطرها الغالي ملأ البيت، ورغم هذا قالت:

ـ "كيف تتحمل العيش في هذه الرائحة القذرة؟".

ـ "يسعدني أن هذا هو ما جذب انتباهك في بيتي المتواضع".

اقتربت إلى حد التصاق الجسدين. طوقت رقبتي.. قالت:

ـ "شيء ما شهواني في هذه الفوضى".

أجبرتني على تعليق التساؤلات والمخاوف، وخيالات المواجهات التي تنتظرني مع الجيران المتحفزين، واتباعها إلى حيث شاءت.. فعلناها في حجرة أبي، تحت صورته المتجهمة ـ بلا داعٍ ـ بالزي الرسمي. لحظة أن اعتليتها، واجهتني الصورة للحظات، فلم أستطع أن أمسك قلبي عن تذوق سخرية الموقف. ماذا إن علم الصول
عبد النبي، الرجل المهيب، أن ابنه الوحيد ـ المارق عن تعاليمه السماوية ـ يضاجع فتاته على فراشه، دون أن تحل حتى ذكرى الأربعين لمقتله.

عندما انتهينا لم تهدأ.. كانت طفلة مندفعة، تحركها الحدود القصوى للفضول. لم تترك جزءًا في البيت لم تفتشه.. فتحت خزانات الملابس، بعثرت متعلقات أمي رحمها الله التي خبأتها بين ملابسي، عبثت بمجموعة



أسلحة أبي.. سألتني مبتسمة، وهي تخطو داخل شقة الطابق الثاني الشاغرة:

ـ "أهنا كنا سنسكن إن تزوجنا؟".

ابتسمت ولم أعلق.. لم أزل - بعد أعوام من العشق المتدرج إلى منتهاه- لا أفهم إن كانت براءتها صادقة أم مدعاة. هل تظن حقًّا أن ثمة أملًا قائمًا لأن تجمعنا حياة مشتركة، على الأقل بشكل رسمي مفهوم للناس، وبمباركة أهلها؛ لا كما حياتنا السرية الحالية؟! أي سياق مقبول، أو وثيقة زواج مختومة بأختام رسمية يمكن أن تجمع اسمًا لامعًا كاسم ياسمين فريد الساعاتي، باسم وضيع، ذي رنين مشوه، كاسم علي عبد النبي؟! ولكنها لم تزل تصر على براءة أحلامها، حتى تقاطع أفكاري بابتسامة مغوية، وتقول:

ـ "أتعرف؟ شيء ما شهواني في هذه الفكرة!".

في الحجرة التي اختارتها لتكون حجرة نومنا المتخيلة، فعلناها مرة ثانية، على الأرض المتربة هذه

المرة.. الغريب أنها بعدها قامت محتفظة بنشاطها ونزقها وحركتها الدؤوبة المحلقة في كل الأركان. في ثوان، تتحول من امرأة نارية الأنوثة إلى طفلة، تمتطي سحابة من حلم.

ارتدت سترة منامة شتوية من مخلفات أبي. فارق القياس بينها وبين السترة كان مضحكًا، ولكن همتها والجهد المبذول جعلها في حالة تستحق الشفقة. كنست أطنانًا من الأتربة عن الأرض.. حاولت نفض الأتربة عن المقاعد والتليفزيون القديم. وقفت أمام حوض المطبخ بوجه متقلص اشمئزازًا، محاولة الإخلال بنظام جبال الأواني والأطباق المتسخة.

ـ "لا أصدق! أين تعلمت بنت الأكابر كل هذا؟".

لم تبتسم أو تبدِ رغبة في قطع انهماكها.. أجابت بجدية:

ـ "تعلمته منذ ساعة واحدة".

رغم هذا أصررت على المزاح:

- "يقولون إن الحب يفعل المعجزات".

استجابت للمزاح بشكل جزئي؛ قالت بنبرات جادة:

- "ربما هي خيبتي الثقيلة، التي تصنع المعجزات!".

المغرب كان يؤذن لحظة أن تهالكنا على الأريكة مثقلين بلقائي عشق، والكثير من الجهد المبذول لتحويل البيت إلى شيء يصلح لمعيشة البشر.. كنت أكتم تساؤلًا منذ بدايات النهار؛ خشية أن يُحمَّل بغير معناه؛ لكن في هذه اللحظة لم أستطع منع انفلاته:

- "هل ستبيتين ليلتك هنا؟".

أراحت رأسها على صدري، ثم قالت:

- "وماذا أفعل في أهلي؟".

أجبتها بين جد وسخرية:

- "كنت أظنهم متحررين من تلك التقاليد".

جادة قالت:

- "ليس إلى هذا الحد".

صمتنا لدقائق في متابعة غير جادة لقنوات التليفزيون، وهي تجري على الشاشة بسرعة نقراتي المتتالية على أزرار جهاز التحكم. على إحدى القنوات، كانت لقطات لجلسة برلمانية، فيها كان أبوها واقفًا أمام ميكروفونه يهدر بكلمات ما. وكأنما تتحداه، أمسكت يدي كي لا أدير القناة، ثم استدارت تلتهم شفتي على خلفية من صوت الأب الجهوري، يتوعد معارضي الحكومة لسبب ما. انفض الاشتباك، وتراجعت رأسها لمسافة تسمح بتداخل النظرات.. تأملت عيني بغير معنى، ثم قالت، وكأنما انتبهت الآن فقط لتلك المعضلة:

- "ماذا سيقول عنك الناس الذين شاهدوني أدخل بيتك؟".

ابتسمت.. بشكل ما كنت أشفق عليها لحظة أن تقرر حمل همي أو هم علاقتنا. يقيني يحدثني أن حمل



الهموم لا يليق بها. هي خلقت من نور، ويجب أن تحيا لحمل النور؛ لذا قلت مخففًا من وقع الأمر:

- "سيقولون نفس ما كانوا يقولونه؛ قبل أن يروكِ تدخلين بيتي.. الأقاويل كثيرة، والكثرة تخلق الاعتياد، والاعتياد لا يجرح".

في اللحظة التالية، هدأ تنفسها وانتظم، فعرفت أنها نامت على صدري.. بعد ساعة أيقظتها، فلامتني لأني تركتها للنوم.. ارتدت ملابسها وحملت أغراضها، قبلتني عند الباب، فتبعتها إلى الخارج. أعرف أن سمعتي قد تلوثت بالفعل، فلا داعي للاختباء كالأطفال. سأخرج معها من باب البناية أمام الأعين، وأمشي معها حتى باب سيارتها، وليذهب الناس إلى حيث ينتمون.. تكفيني نظراتها الفرحة إلى وجهي، وكأنما توقعت أن ألفظها من بيتي وأغلق الباب وراءها، متنهدًا فرحة الخلاص. وكأنما فهمت رغبتي في تحدي العالم، فقبضت على يديَّ بقوة، ونحن نخطو إلى الحارة. على وجهينا ابتسامتان، وفرحتان حقيقيتان؛ قطعنا الخطوات حتى بلغنا موضع سيارتها، مدركين أننا

خدشنا للتو حياء عالمنا المظلم.. لحظتها تكلمت، قالت:

- "لن أكرر الزيارة حتى أطمئن أن أحدًا لم يقتلك؛ ثأرًا لشرف المجتمع المهدور".

ابتسمت وأجبتها:

- "يكفينا قتيل واحد في الأسرة".

ملاصقين لباب السيارة، لاحظنا تلك الورقة المحشورة خلف أحد ماسحي الزجاج. سحبتها لتقرأها. ملامحها رسمت ألمًا. أعرف أن رقتها لا تتحمل حزنًا كهذا.. ناولتني الورقة، لم آخذها فأنا أعرف ما بها. قلت موضحًا:

- "رأيتها عشرات المرات. منذ أيام ولا سيرة هنا سواها.. زميل لي في المدرسة هو من يوزع تلك المنشورات".

منعت دمعة وهي تقول:

- "ألم يجدوها بعد؟".

- "لا أظن، وإلا كان توقف عن توزيع الإعلان".

أعلم أنها لن تنام ليلتها، ستظل صورة الطفلة بريئة الوجه تطاردها. أشفقت على رقتها.. لولا قسوة الشوارع لضممتها حتى تهدأ. طوت الورقة، ودستها في حقيبتها.. ركبت سيارتها، أزاحت حاجز الزجاج بيننا، وأطلت بوجهها. حاولت إجبار الحزن على فتح الطريق لابتسامة، وهي تلوح لي مودعة. بقيت في مكاني أتأمل غيابها.. عندها أدركت أن العودة للبيت فكرة بالغة السخافة.. ماذا هناك يدفعني للعودة؟ ماذا هناك غير البرد والخواء؟

منذ أيام ـ لا تهمني الدقة الإحصائية حين أتحدث عن جريان الزمن ـ مات أبي. طُعن أمام باب المسجد في خروجه من صلاة الفجر.. موت مفاجئ، قاس. أحزن الجيران كحالة إنسانية، لكن
لا أظن غياب أبي كإنسان قد أحزن أحدًا.. هو لم يحزنني أنا ابنه الوحيد، فماذا عن الناس؟! نحن لم

نسكن تلك المنطقة سوى منذ عشرة أعوام ـ ربما تزيد بمقدار ضئيل ـ هربًا من سمعة صاخبة لحقت بسيرة أبي، صول الداخلية المهيب، صاحب التاريخ المشرف في مصلحة السجون، ثم أمن الدولة، قبل خروجه للتقاعد مرفوع الرأس، شاعرًا بأمجاد وبطولات مرفوعة على أحرف اسمه، بعد عمر قضاه في خدمة الوطن.

رجل كهذا ما كان ليتحمل سمعة لاذعة كزوج لامرأة مجنونة.. حاول كثيرًا أن يخفي أمر أمي عن الناس، لكن الحقيقة في بلدنا لها تلك الإرادة الخاصة، تسعى دومًا لاكتمال الضوء حولها، وتنفس الحياة على ألسنة الناس؛ لذا فالحقيقة ـ كما شاءت ـ سرت في ليل وبلغت كل الألسنة، فظن أبي أن الهرب بما بقي من سيرته بات فرضًا، فجئنا إلى هنا.. منطقة ريفية قديمة، استهلك سكانها أرضها الخصبة في زراعة الطوب والأسمنت وآلاف الأطفال البائسين.

اشترى أبي الأرض وبنى بيتًا من طابقين، يسكن هو في أولهما مع حلم بزواج قريب يعوضه الله به زوجته

المكروهة. وطابق ثان كمستقر لزواج محتمل للابن الوحيد الخائب الذي هو أنا. فماذا إن علم وهو يصب لعناته اليومية على رأسي، بسبب أو دون، أو وهو يطلق صواعق كلماته نحو رؤوس السلطة الذين عاش ليخدمهم، فتخلوا عنه في أمل أخير أن يلحقوا ابنه بكلية الشرطة؛ ماذا إن علم أن قلبي حلّق في فضاء عال، ليحط في كف واحدة من بنات أولئك الذين يلعنهم.. مجرد نادل في كافيتريا النادي، وملاك من عالم بعيد يحتسي الشيكولاتة الساخنة في صباحات الشتاء، فكيف يلتقيان ليعجنا معًا أفكارهما، وأحلامهما، وحتى جسديهما؟

هل كان أبي ليفرح إن علم بأمر علاقتي تلك؟ معتبرًا ـ بما يوافق أمراض عقله ـ أن في امتطائي لابنة الأكابر، ردًّا لبعض اعتباره؟! أم أنه كان سيثور، كما فعل في أعقاب كل خطوة اتخذتها لحياتي، دون أن يكون هو مخططها؟ ربما ناداني - كما يفعل في لحظات السخط الكثيرة- يابن المجنونة.. أو ربما ناداني بالسبة الجديدة التي استحدثها في اللغة من أجلي: يا مدرس الألعاب!

بالنسبة لأبي اشتغال ابنه ـ خريج كلية التربية الرياضية ـ بتدريس مادة التربية الرياضية هو نوع من ضياع الهيبة! وهو ما يحملني مسئوليته بالتساوي مع الكبار الذين خذلوه؛ فأنا خرجت عن الخطة التي كانت تقتضي بالتحاقي بكلية الحقوق، حال فشل التحاقي بكلية الشرطة. رغم اتباعي لسبيله مبدئيًّا، لكنني لا أستطيع أن أجزم أن رسوبي لعامين متتاليين في أولى سنوات الدراسة بكلية الحقوق كان قدريًّا؛ ربما بشكل ما تعمدته، أو على الأقل تمنيته.

استحوذت الأفكار على عقلي، ولم يخرجني منها سوى رائحة الفلافل الساخنة! اشتريت عشائي، واتخذت طريق العودة.. ألقيت السلام على كل من قابلني عند دخول الحارة كنوع من قياس اتجاه الرياح، علّني أرى بشائر عاصفة ما قادمة من وراء زيارة ياسمين المفاجئة.. لكن كل شيء بدا لي طبيعيًّا بدرجة أكثر إثارة للقلق. في بيتي، باب لدكان مغلق، بناه أبي عساه يؤمن مستقبلي بشكل ما. ربما أفكر جديًّا في استغلاله إن أردت أن أبني لنفسي حياة مستقرة، فقريبًا سأبلغ



السن الذي ينقطع فيه عني معاش أبي، ولن يبقى لي سوى راتب المدرسة الهزيل.. ضحكت وأنا أعبر باب البيت، وأنا أتخيل نفسي جالسًا في حجرة الاستقبال الفاخرة بفيلا ياسمين، أخبر والدها ـ المنتشي بمكانته وملياراته وحصانته ـ أني مدرس ألعاب، وصاحب دكان بقالة، وأريد الزواج من ابنته! هل إخباره لحظتها بطبيعة علاقتي بابنته قد يدفعه للتساهل في الزيجة كما في الأفلام القديمة، من أجل ستر الفضيحة؟ لا أعتقد، لكنها ستكون تجربة تستحق المشاهدة.

أغلقت باب البناية الحديدي خلفي بالمفتاح.. لست أدري السبب، ولكني في منطقة ما من عقلي بت أدرك جيراني كتهديدات محتملة. كدت أصعد الدرجات حين سمعتها.. طرقات على الباب الخشبي الموصود أسفل السلم.. أبي جعل هذه الحجرة كمخزن محتمل للدكان المحتمل، لذا فهي فارغة بحسب ما ظننته حتى تلك اللحظة. اقتربت من الباب منصتًا.. هناك من يطرقه من الداخل، لا لبس في الأمر! وضعت أذني على الخشب البارد، وناديت:



- "من هناك؟".

أفزعني أن يأتنيي صوت واهن من الداخل..

- "افتح.. أرجوك".

تجاوزت الخوف ثم الدهشة، وأخرجت من سلسلة مفاتيحي مفتاحًا صدئًا، لم أستخدمه قبلًا، منذ أن آلت إليّ ملكيته من سلسلة مفاتيح والدي. فتحت الباب فوجدت أمامي في الظلام جسدًا عجوزًا واهنًا، لشخص لم أتعرفه فورًا.. لكني سأعرف بعد دقائق أنه بدر الوكيل ذاته.. الصحفي الذي شغل اختفاؤه المريب البلد لأعوام.

***

لا أذكر متى، فأنا لا أتعامل مع مرور الأعوام بجدية، ولا أهتم بتسجيل مرور فترات الزمن.. لكني أذكر جيدًا يوم شاهدت صورته في الجريدة؛ كان جار لي في المترو يقلب في صفحات جريدته، عندما رأيت الصورة فتعرفته.. مددت عنقي ببصر فضولي إلى

عنوان الخبر: (اختفاء الصحفي بدر الوكيل في ظروف غامضة). حاولت التحصل على المزيد من المعلومات، لكن الجار المتعجرف انتبه لنظراتي، فطوى جريدته وانزلق بجسده لبعيد. الفضول غلبني، فدفعني إلى شراء الجريدة من أول بائع قابلني.. لم أستطع صبرًا، فارتكنت إلى جدار بناية ما مقلبًا الصفحات، حتى وجدته. التهمت الكلمات على عجل.. الرجل كما يبدو صحفي كبير، يقولون إنهم عثروا على سيارته مفتوحة الأبواب في بقعة من الطريق الصحراوي.. لا معلومات عند الزوجة أو زملاء العمل.

هذا الرجل كان في بيتنا منذ يومين، تناول العشاء مع أبي؛ فما علاقة أبي برجل كهذا؟! طوال حياتي لم أعرف شيئًا عن حياة أبي خارج البيت.. لم أعرف شيئًا عنه سوى عراكه الدائم مع أمي. لم أعرف سوى كراهيته لي، التي لا أدري لها سببًا، سوى تشابه ملامحي بملامح أمي.. وكراهيتي له، التي لم تتوقف مسبباتها عند قسوته معي، وإنما بسبب ما جرى لأمي، والذي أعرف يقينًا أنه يقف وراءه بشكل أو بآخر. من

قال إنها جنّت؟ هو من فعل؛ فإلى أي مدى يمكن أن يَصْدق رجل كهذا؟ حتى وإن صَدَق، فمن غيره دفعها إلى الجنون وإلى نهايتها المأساوية؟ أحيانًا أتساءل: هل حقًّا انتحرت أمي في محبسها بالمستشفى؟ أم أن لأبي دورًا خفيًّا عني؟ الآن، عندما أنظر إليه، لا أستبعد عنه اتهامًا كهذا.. تحديدًا منذ أن كبرت واتسعت مداركي و خبراتي بالحياة.. منذ أن عرفت طبيعة عمله في المعتقلات وفي أمن الدولة.

في صغري، لم أعرف شيئًا عن عمله سوى أنه شيء يهابه الجميع.. لن أنسى المعاملة الخاصة، التي كنت ألقاها من المدرسين في طفولتي، ولا نظرات الخوف في أعينهم، عندما كان يحضر لزيارة المدرسة متبخترًا لأي سبب.. كما لن أنسى كلمة سمعت مصادفة مدرس، يهمس بها لزميله في فناء المدرسة، في أعقاب خطوات أبي المغادرة..

ـ "كلب من كلاب السلطة".

فماذا يجمع الصحفي الذي لم يزل مرموقًا بواحد من كلاب السلطة السابقين؟ حملت فضولي إلى البيت. هناك كان أبي يلتهم طعامًا جاهزًا تفوح منه رائحة الشواء.. راقب دخولي المتعثر، بادرني بسؤال أخشاه:

ـ "ماذا فعلت؟".

تأملت بلا سبب مقنع نقوش السجادة القاتمة:

ـ "أخبروني إنهم سيتصلون بي".

ضرب كفًّا بكف، فتناثرت على ملابسي قطرات دهنية من بقايا طعامه:

ـ "عدت إذًا بالخيبة كالمعتاد".

مزق بأنيابه قطعة لحم، ثم تذكر..

ـ "هل أعطيتهم البطاقة؟".

هززت رأسي بالإيجاب.. بطاقة بلا قيمة هي، تحمل اسم أمين شرطة، كواسطة لقبولي في الوظيفة. لكن

الرجل المفتقد لأمجاده الزائلة يتحرك في العماء، كغريق يتعلق بأي أمل طافٍ.

ـ "أحضر لنفسك طبقًا".

نحى جانبًا قطعة لحم معلنًا أنها لي.. تجرأت ووضعت أمامه الخبر في الجريدة..

ـ "أليس هو صديقك؟"

تعجبت أنه اهتم.. أمسك بالجريدة، وقرأ الخبر متأنيًا، ثم وضعها واتكأ عليها بذراعه مكملًا طعامه..

ـ "ليس صديقي".

لا أعرف كيف تركت فضولي يقودني لمحاجاته:

ـ "لكنه كان عندنا منذ يومين".

ببساطة قال:

ـ "لم يحدث.. لقد اختلط عليك الأمر".

هو يكذب، أنا واثق أنه يكذب.. لكنه لا يبالي إن كانت كذبته واهية، فهو يعلم ـ ومعه كل الحق ـ أني لن أخالفه إلى ما ختم به كلماته.. اتجهت إلى المطبخ، وأحضرت طبقًا كما أمرني.

لدهشتي، لم ينته لقاء العمل بالخيبة مثل كل مرة. بعد يومين هاتفوني. في النادي، ذهبت للمقابلة برغبة في العمل كمدرب للسباحة.. لكن الموظف الذي هاتفني أخبرني أنهم - إكرامًا لواسطتي- يمكنهم أن يوفروا لي عملًا في كافيتريا النادي.. وافقت لحاجتي للمال، ولم أخبر أبي يومًا عن حقيقة عملي في النادي، حتى تركت هذا العمل والتحقت بالعمل في المدرسة، وحتى وفاته، لم يعلم أن ابنه عمل كنادل.

***

كان يأكل بنهم، لا يتناسب مع ضآلة حجمه وعمره المتقدم، ولكن ربما يتناسب مع الوقت الذي قضاه دون طعام، منذ أن نفد المخزون الذي تركه أبي عنده.. الجوع لم يدع له وقتًا للحزن على مقتل صديقه.. قرر

أن يملأ فراغ المعدة أولًا.. ولما انتهى، عاونته على المشي إلى الحمام، غسلت له يديه، ثم أخذته ومددته على فراش أبي.. لحظتها، وعيناه تقعان على صورة أبي المعلقة فوق الفراش، أسقط دمعة، وبوَهن صوته ترحم عليه، ودعا له بالجنة. كنت أقدِّر أنه أصغر عمرًا من أبي، ربما هو في نقطة ما من الطريق بين العام الستين والعام السبعين.. لكن الأعوام التي قضاها في حجرة مظلمة، بلا شمس، أو تهوية تذكر، أصابته بهذا الهزال، فكأنما عمره تضاعف، رغم غليان الفضول في عقلي، إلا أنه هو من بدأ بإرواء فضوله، فسمحت له بهذا، احترامًا لفارق العمر:

ـ "كيف قتل؟"

ـ "طُعن وهو خارج من المسجد".

ـ "ولكن من فعلها؟"

صمتُّ قليلا متيحًا لخيالاته مساحة للحركة، عساه يعثر على جوابه الخاص.. بالنسبة لي، كانت هناك

عشرات الأجوبة الممكنة لسؤال كهذا، وكلها محتملة بالقدرذاته، طالما غاب اليقين..

- "مجهول.. هكذا قالت الأوراق الرسمية".

- "وماذا عن الحقيقة؟".

سؤاله يخبر أن خيالاته لم تزل تعمل، فأجبته من مستوى التخيل:

- "في رأيك، كم شخص يمكن أن يكون له ثأر عند أبي؟".

- ... "وفي رأيك، كم شخص يريد أن يدفن الحقائق معه؟".

ابتسمت..

- "هو شهيد إذًا؟!".

مد يده قابضًا على ذراعي.. قبضته كانت أقوى مما يوحي به هزاله:

ـ "لا تظلمه.. أبوك كان عبدًا مأمورًا.. لكن في ديننا يحاسب العبيد على جرائم سادتهم".

كانت لحظتي هي لإطلاق التساؤلات:

ـ "ألهذا اختفيت؟ هربًا من المحاسبة؟ أم أنك عصيت أسيادك، فطردت من الجنة؟".

استرخى جسده. عدل وضع رأسه على الوسادة وأغمض عينيه. عبر المسافة الآخيرة الفاصلة لالتقاء الجفنين، قال:

ـ "حبست نفسي بحثًا عن حريتي"..

انتظمت أنفاسه، لا أعرف إن كان نام حقًّا، أم يمارس فقط بعض الهروب الذي أظنه يجيده، لذا قلت تحسبًا:

ـ "أنت إذًا عبد مثله".

أحكمت دثاره، وأطفات نور الحجرة.. قبل اجتياز بابها، لفحني ما علق من عطر ياسمين في فضاء الحجرة التي شهدت منذ ساعات غيابنا. دخلت حجرتي، على



فراشي كانت متعلقات أمي التي بعثرتها ياسمين لم تزل هناك.. لملمت الأشياء الصغيرة، وأعدتها إلى مخبئها وسط ملابسي. للحظة توقفت؛ لماذا أخبِّئها، وممن؟ لقد رحل أبوك يا علي، ألم تفهم بعد؟ ألم تزل تخشاه؟ لم أحدث أحدًا من قبل عن أني لم أزل أرتجف لحظة دخولي للبيت، متوقعًا مباغتته لي بصراخ، أو بسؤال: "أين كنت يا ولد؟" لم أزل أنهض مفزوعًا في الليالي، متخيلًا أن صدى ندائه عليّ يتردد في الشقة.. إنني أقارب الجنون؛ تلك هي الحقيقة التي احتفظت بها لنفسي. فهل هي عوامل الوراثة التي أحملها عن أمي، أم أن أبي هو العامل المشترك الوحيد في انهيارنا عصبيًّا؟

مدفونًا في حضن خالتي، كنت أسمعها تردد طوال جنازة أمي:

- "ربنا ينتقم منك يا ظالم".

لم أسألها عن السبب، ولم أكن لأستوعب في هذه السن.. لكنني أذكر كيف أنها وقفت له بعد انقضاء أيام

العزاء الثلاثة، رافضة أن أعود معه إلى البيت.. كان رفضها مكللًا بكل الحجج اللطيفة، المبهجة لطفل مثلي:

- "دعه هنا وسط أولاد خالته، يلعب معهم ويتسلى".

رغم كراهيتها، لم تكن تخاطبه سوى بلقب (أخي)، وهو ما كان يبالي بصيغ التوقير، بالعكس، فقد كانت تزيد ذاته انتفاخًا، فيزداد غطرسة:

- "لا داعي لهذا الكلام.. أنا لم أمت بعد".

لا أعرف لم تمسك بي! ربما لأنه اعتاد وجود من يذيقه العذاب في البيت! ذهبت معه كمن يقاد إلى غرفة الإعدام، فالأشهر التي قضيتها معه وحدنا، أثناء إقامة أمي في المستشفى، تكفي لأعرف ما أنا مقدم عليه، إذا ضاعفت هذه الأشهر حسابيًا لتبلغ ما بقي من عمره أو عمري.

أعدت إخراج متعلقات أمي من مخبئها.. آن الأوان أن ترى النور. رششت من زجاجة عطرها قدرًا على

طرحتها، وربطت الطرحة في فراشي، ليحركها الهواء فوق رأسي طوال نومي.. وضعت السلسلة الفضية حول رقبتي، وساعتها حول معصمي، ونمت.

***

الفتى يحكي

كل صباح، أستيقظ من النوم كمن ينتزع من عالم مسحور إلى عذاب واقعه.. ربما هكذا شعرت آليس، وهي تغادر أرض العجائب؛ معاناة وجهد لاكتساب مقومات تلك الحياة البائسة التي لم أتخيرها، ولا أظن حتى أنها اهتمت باختياري، وإنما هي علاقة قدرية، بلا منفذ للهرب، أو حتى للاعتراض. أسبح في الهواء، حتى تطال يدي ما يمكن أن تتمسك به في رحلة جسدي إلى الأرض.. أرتدي حذائي - حقيقة وجودي في هذا الحذاء - وأبدأ السير المشوه نحو الحمام، ونحو يوم كمثل سابقيه، بلا أمل، بلا فرحة، بلا حياة..

أرتدي ملابسي المجهزة بالأثقال.. أتناول فطورًا مختصرًا مع الأم المتشحة بالأسود النهاري.. يتميز أسودها النهاري بدرجة أعلى من البهتان، وبقع صفراء صغيرة، نتيجة تناثر قطرات الكلور عليه، وهي تغسل غياراتي الداخلية.. ربما الأسود حزنًا على أبي، الذي بقي في أرض العجائب منذ سنوات بعيدة، وخلف



وراءه وعدًا لم أزل أنتظر تحقيقه. وربما هو حزنًا على ابنها، الذي لم يجد بعد لنفسه مكانًا دائمًا هناك، في أرض العجائب، حيث ينتمي، وحيث ينبع نهر الأحلام.. شقيقتي الوحيدة ـ مثلهم ـ لا تعرف شيئًا. أمي تعرف، لكنها لم تزل تفضل اتهام عينيها بالكذب، حفاظًا على ثبات عقلها، المعلق بخيوط الاعتياد والاستقرار والموروثات المقدسة. هي تعرف، لكنها مجرد واحدة أخرى منهم.. تدعو لي كل صباح حين مغادرتي للبيت بالستر، دائمًا تدعو لي بالستر، أسألها لماذا لا تدعو لي بالتوفيق، أو بزوجة صالحة مثلًا، فتقول إن الستر يشمل كل المعاني؛ فلا أصدقها.

***

أمشي في فناء المدرسة، أجر ساقًّا وراء الأخرى، مقاومًا عجزي المفترض. أرى بجانبي العينين ما لا يجب أن أراه. اللعنة على الأشباح التي تداعب حدود الإبصار.. أرى في كل حركة أحد طلابي يسير خلفي مقلدًا مشيتي العرجاء لإضحاك زملائه.. أرى كل حركة رأس من زميل، كإشاحة بالبصر المشمئز بعيدًا عني، أو

ميلا على رأس زميل مجاور بهمس عني. ربما هي حساسية زائدة تصنعها الإعاقة، ولكن لا دخل للحساسية في ثقل يجثم على صدرك، حين تطالك مصادفة كلمات يهمس بها ناظر مدرسة في أذن وكيله عنك:

- "كيف لمدرس بهذا الشكل أن يخلق لنفسه هيبة في نفوس طلابه؟!".

ضايقتني كلماته، طرحتني فراش الاكتئاب لأيام.. لكنني الآن، وبعد أعوام في المهنة، أتساءل إن كان هذا الناظر محقًّا في تخوفاته أم لا.. لكن ما يبقيني على المقاومة، وما يجبرني على البقاء واقفًا، أنهم لا يعلمون الحقيقة.. بداخلي أعلم أني أكبر منهم وأعظم، وأن ما يظنونه عجزًا ليس إلا غلافًا يداري ما لا يفهمونه، وما تعجزعقولهم القاصرة عن استيعابه. لكنهم لا يعلمون، وربما لن يعلموا.. فماذا عنك أنت يا أبي، في مخبئك في أرض العجائب؛ هل تعلم ما صار لابنك؟



أمام اللوح الأسود الباهت ـ المتشقق في أكثر من موضع ـ أخط سخافات تفرضها علي مناهج الوزارة كعلوم.. لا أبالي بصخب الأطفال خلفي، فقد عقدت العزم، منذ زمن، أن أدعهم يحترقون في الجحيم. الدروس في دفتري معدة بما يروق للمفتشين، ومخطوطة على اللوح بنظام لائق مهنيًا، وهذا كل ما يهم. أنهي الكتابة والتفت تاليًا ما في دفتري بلهجة رتيبة.. لا أبالي بمن ينصت أو يتابع.. المهم أن ينهي صوت الجرس الطروب دقائق المعاناة. لكن قبل انطلاق الجرس، يأتيني رسول حاملًا رغبة مدير المدرسة في رؤيتي من على الفور.. كان رجلًا على مشارف التقاعد، أعترف أنه أفضل من عملت تحت إدارته.. خلوق، حكيم، عادل، ولكنه في النهاية مجرد آخر منهم؛ أصحاب العقول القاصرة. كان متعاطفًا بحق، وهو يخاطبني بما يظنه نصيحة أب، لا تتحمل التأخير حتى انقضاء زمن الحصة..

ـ "الناس باتوا يرونك يوميًا في قسم الشرطة، ونحن في مجتمع شعبي صغير، والأقوال تتناثر بسرعة

الحريق".

أقلب كفي عن دهشة، وأقول:

- "وهل أنا أذهب إلى قسم الشرطة متهمًا؟ الجميع يعلمون لماذا أذهب".

- "هم يعلمون.. لكن لا يستوعبون.. يظنون الأمر لا يستحق تلك الزيارات اليومية، وبالتالي يعتقدون أن في الأمر ما يغيب عن إدراكهم، فيخلقون الحكايات بما لا يليق بهيبة المعلم".

اللعنة على هيبة المعلم..

- "هل هذا ما يظنونه؟ أم ما تظنه أنت؟".

لم أكن معتادًا يومًا دفع الأحاديث حتى منتهاها.. بطبيعتي أحب ألا يطول احتكاكي بهم - أصحاب العقول القاصرة - لذلك لا أبدي أمام كلماتهم سوى الطاعة، أو الرضا، أو التأييد، أو أي مما يرغبون سماعه، فقط ليتوقفوا عن الكلام ويتركوني لحالي. لكن لا أعلم

لماذا في هذ اللحظة تحديدًا، قررت أن أضغط عليه لأعصر ما في عقله حتى أخر قطرة.. هو كذلك بدا متفاجئًا بسؤالي، ربما لعدم الاعتياد؛ لذا قرر خلق مساحة لتمدد أفكاره، قبل أن يجيب:

- "أنا مثلهم لا أفهم دوافعك.. أظن الأمر زاد عن حدوده المقبولة".

قررت بشكل، فاجأني أن أواصل الضغط..

- "وما حدوده المقبولة؟".

زفر ليبدي لي كيف يسيطر على انفعالاته:

- "هي مجرد جريمة يا بني.. الأمر بشع ومؤلم لا شك في هذا.. وجميعنا في حالة حزن وصدمة، وقلق على مصير البنت المجهول.. ولكن في النهاية الأمر في يد الشرطة.. الكل يشهد لك أنك فعلت ما عليك وأكثر بكثير.. فإلى متى؟".

كان السؤال الأخير المعلق دون انتظار لجواب يقلقني حقيقة.. سمعته كثيرًا، وسألته لنفسي أكثر: إلى متى؟

عندما أبلغوني بالخبر، لم أتعرف عليها.. لا اسمها، ولا أوصافها، ولا حتى صورتها، التي رأيتها في جريدة برفقة الخبر؛ فماذا دهاني؟ ربما لم أميزها؛ لأنني لا أتعامل بجدية مع أولئك الشياطين المصغرين؛ لكنها في النهاية طفلة، لها وجه ملائكي يصرخ بالبراءة.. والأهم أنها تلميذتي. هل في هذا مبرر كاف؟ بالتأكيد لا، ولا حتى لي أنا، فأنا أحيانًا لا أصدق نفسي. ربما أنا أكثر ملائكية مما كنت أظن! أجدني مدفوعًا إلى زيارات يومية لقسم الشرطة، أسأل عن جديد، لا ألاقي سوى سخرية.. كدت مرة ألقى هلاكي حين انفعلت على ضابط واتهمته بالإهمال والتقصير؛ لكن بعض أولاد الحلال من رجاله ذكَّروه أني مسكين معاق، وليس على المعاق حرج.

بالأمس قابلته مصادفة في ردهة القسم، سخر مني، وهددني بالاحتجاز إن عدت.. لكني سأعود، أعلم أني سأعود، القضية استحوذت عليَّ، والمصير المجهول

للطفلة بات لي شاغلًا وحيدًا في هذه الدنيا. أبواها لم يفعلا مثلي؛ أسمع هذه الجملة كثيرًا، وأصدقها. كل منهما ذهب في طريق مع شريك جديد، وتركا جودي في رعاية جدتها؛ امرأة عجوز لا تقوى على شيطنة طفلة في الثامنة؛ ولكنها تحاول، عساها حتى تكسب ثواب تعويض تلك المسكينة عن والديها.

المشهد يسير باعتيادية؛ حياة صغيرة ضمن مئات الحيوات المحشورة في تلك الحارات.. لكن فجأة يتلون المشهد بلون دموي خارج أي سياق متوقع أو معقول. يعثر على الجدة قتيلة في شقتها. لا سرقات، لا آثار اقتحام؛ فقط القتل، وجودي الصغيرة تختفي، لا تظهر في أي مكان.. ربما هربت لحظة الجريمة، لكن إلى أين؟ هي تعرف الطريق إلى بيتي والديها، فإن هربت كانت وجهتها ستكون إلى أي منهما.

البنت مخطوفة، هذا هو الاحتمال الأقرب.. البحث هنا يجب أن يشمل عالمي الأحياء والأموات، ولكن الشرطة تتعجل حفظ القضية، وكأن في أجندتهم ما هو أكثر أهمية. أمين شرطة عجوز في القسم حكى لي

متندرًا أن للجدة القتيلة حكاية مشابهة.. قتل جدها وهي بعد طفلة، وكانت معه في نزهة، واختفت لأيام، قبل أن تعود، وهي لا تتذكر شيئًا عن أيام اختفائها. سبّح الرجل اللّٰه، وضرب كفًّا بكف، متعجبًا من حال الزمان، وترك لي غيظًا عظيمًا من عدم اهتمام أحد بمفارقة كتلك، قد تحمل دلالة ما. لا أعرف ما دهاني، لكنني كما لو كنت موقوفًا على إيجادها.. أنا الذي طبعت النشرات بصورتها، وأنا الذي أطوف المدينة ألصقها على الجدران، والأبواب، ووجوه أصحاب العقول القاصرة. نوعًا ما صرت مجنون جودي! ولن أهدأ حتى أجدها أو أجد اليقين، فأخبرني يا أبي إن رأيتها يومًا عندكم في أرض العجائب، ربما خارجة من جحر أرنب، أو متسللة إلى غابة الفطر العملاق.

أخرج من حجرة المدير، لأكتشف أن زمن الحصة لم ينقض بعد.. لا رغبة لي في العودة إلى الفصل. أتمشى قليلًا في الفناء، أراقب الأولاد والبنات في حصة الألعاب يؤدون تمرينات الوزارة السخيفة، التي لا جدوى لها سوى ضمان رضا موجهي المادة. أمرُّ من



أمام حجرة مدرسي التربية الرياضية، أتأمل قلبها بحثًا عنه. هو الوحيد الذي يمكنني تسميته ـ تجاوزًا ـ صديقي. لا أراه، أفكر أن أسأل عنه، لكن سريعًا ألوم نفسي على هذا الاهتمام غير اللائق بأحدهم؛ ففي النهاية هو واحد منهم.. ربما كان عقله أقل قصورًا، لكنه بلا شك منهم؛ لذا أدفن نفسي في حجرة المدرسين، فوق مقعد بارد ضيق كلحد أبدي.

***

كان النهار يسير نحو منتصفه، وساعة الخلاص تقترب، عندما أتاني علي في حجرة المدرسين.. لاصق مقعدًا بمقعدي، وجلس متجهمًا. بادرني بافتتاحية تقليدية، أعرف أنها بعيدة عن أسباب تجهمه الحقيقية:

ـ "أما من أخبار عن جودي؟".

أهز رأسي نفيًا، وأنا أمد نحوه نظرات متلصصة على الروح، في انتظار بوحه بما فيها..

ـ "أتعرف صحفيًا اسمه بدر الوكيل؟".



لا أحتاج وقتا أو جهدًا لتذكر الاسم، وكل ما دار حول صاحبه:

- "ما له؟".

- "من هو؟".

لا أفهم لماذا يتحدث بالهمس، لكني أجيبه بالهمس:

- "كلب من كلاب النظام".

لا أعرف إن كان ما في عينيه حزنًا أم غضبًا، ولكن النظرات على غير عادتها. علي لا يهتم كثيرًا بمتابعة أخبار البلد، يسأم من السياسة، لا يفضل القراءة؛ لذا فليس بالغريب أن يجهل شخصية مثل بدر الوكيل.. الغريب هو أن يسأل عنه بهذا الفضول:

- "حدثني عنه أكثر".

- "مناضل يساري قديم.. من قيادات الحركة الطلابية في السبعينيات.. ولكنه من أولئك الذين لم يتحملوا مضايقات النظام، أو ربما أحبوا أن يتحالفوا مع الفريق

الرابح.. باع سنوات نضاله، كما باع قلمه وعقله، وتحول إلى صحفي موالٍ للنظام.. كان رئيسًا لتحرير واحدة من الصحف المهمة، حتى اختفائه الغامض".

صمت وفي نظراته خيالات لجريان الأفكار، فسألته:

ـ "كيف لم تسمع بحادثة اختفائه؟".

ـ "سمعت بها بالطبع.. ولكنني لم أهتم بمعرفة من هو حقًّا".

صمت من جديد، وفي نظراته ذات الخيالات، قبل أن يقطع رقصاتها بقوله:

ـ "يبدو من كلماتك كشيطان؟".

علي واحد منهم، لكنه لا يرغب حقًّا أن يكون منهم؛ لديه تلك الروح القلقة الفضولية التي تجعله ـ من وجهة نظري ـ قابلًا للإصلاح؛ وأنا أعتبر إصلاحه من مهامي المقدسة في هذه الحياة.. مهمة عليَّ إنجازها

قبل أن يأتي يومي، وأبقى في أرض العجائب لا أغادرها أبدًا.. لذلك، كنت صبورًا معه، وأنا أوضح:

ـ "من يدري.. ربما إن لاقينا ما لاقاه في شبابه ـ من اعتقال وتنكيل ـ لاخترنا مثله طريق الأقوى".

اقترب من أذني محاولا إحكام مسار تناقل الكلمات، فلا يتسرب همسنا:

ـ "أنت أرجح مني عقلًا.. وأنا أثق في أحكامك؛ لذلك سأصارحك بما في نفسي".

لم تكن علاقتنا على درجة تسمح بتبادل الأسرار؛ لذا تعجبت، وبِالقدر نفسه فرحت. ربما آن الأوان ليكون لي صديق، يسر إليّ وأسر إليه. للحظة انسللت عن كلماته، وأنا أتخيل ردود أفعال محتملة إن أخبرته بسري. لكنه أعادني عنوة إلى وقع همساته، على كلمات عجيبة ينطق بها..

- "بدر الوكيل كان مختبئًا في بيتي طوال تلك السنوات".

***

بالنسبة لي، كانت الجامعة مجرد مكان للتعلم، ولا أكثر.. أتواجد قبل بدء المحاضرة بدقيقة، وأغادر بعد انتهائها بدقيقة. وقتها كنت لم أزل سويًا، لم يكن بي هذا العرج، إن اتفقنا على تسميته مؤقتًا: عرجًا. لكن كان بي ـ ومنذ وفاة أبي تقريبًا ـ كراهية لهم، فكنت أتحاشاهم،
لا أحدثهم، ولا ألمسهم، أو أتنفس زفيرهم.

لا أعرف ما دفعني في هذا اليوم لخيانة مبادئي.. وجدت الإعلان بجوار باب كلية الآداب، ندوة مع الصحفي الكبير بدر الوكيل بعنوان: المسيرة والعطاء! كان العنوان في حد ذاته مستفزًّا أكثر من اسم الضيف، الذي أعرف جيدًا وضعه السلطوي. ربما هذا ما استفزني للحضور، أو ربما هي حماقة الفضول. الندوة أدارها معيد شاب أعرفه شكلاً،
ولا أعرف له اسمًا حتى الآن، رغم عظم الدور الذي لعبه في حياتي. مدير الندوة أكد أكثر من مرة، بعد تقديمه للضيف، أن على من يرغب في توجيه سؤال



أن يدونه في ورقة، مصحوبًا باسمه الثلاثي، واسم كليته، والقسم الذي يدرس به، والسنة الدراسية. لم أفهم وقتها داعيًا لكل هذه البيانات، ولا لتأكيد الرجل المستمر على أن السؤال الذي سيأتيه دون هذه البيانات لن يؤخذ به.. كنت لم أزل أتحرك قدريًا دون تخطيط مسبق؛ لا أعرف ما دفعني لحضور الندوة، ولا ما استفزني لقطع ورقة من دفتري وتدوين سؤالي.. الغريب، أنني الآن لا أتذكر السؤال الذي كتبته. هل كنت وقتها شخصًا آخر؟ هل هذا هو تلبس الجن الذي أسمع عنه ولم أره أبدًا؟

كان مدير الندوة يفض أوراق الأسئلة، يلقي بمحتواها على أذن الضيف، فينتفخ، ويجيب عن كل سؤال بالحماس ذاته، والابتسامة ذاتها. لكن تلك الورقة تحديدًا، فضها مدير الندوة، قرأ ما بها، ثم طواها ووضعها في جيبه. حاولت تكذيب نفسي، لكنني عرفت لحظتها أنها ورقتي.

في نهاية الندوة، فرغت كل الورقات، ولم يتل سؤالي، فتيقنت أنها كانت ورقتي.. تعجبت مما صار، ولكني

نسيته سريعًا. لكن في ذلك اليوم بعد أعوام، تذكرته في أمن الدولة، وهم يحققون معي، بعد اعتقالي في واحدة من المسيرات الثورية.. كنت خائفًا، أحاول تهيئة عقلي لأي آتٍ، لا أستبعد حتى أن أخلع حذائي وأطيرعبرالنافذة هربًا.. لكن ما لم أتوقعه أبدًا، أن أرى على المكتب أمام الضابط ملفًا، على مغلفه مدون اسمي رباعي المقاطع، بخط يدوي جميل، لا يعطي أية فرصة للتشكيك؛ حمزة سعد عبد المجيد الصاوي.. هذا أنا، ولا يمكن أن يكون غيري أنا.

عندما فتح الضابط الملف، كانت أولى ورقاته، هي الورقة ذاتها التي كتبتها بخط يدي، سؤالي الذي لم يُسأل لبدر الوكيل.. وفي أخر ورقات الملف، قرأ الضابط بصوت عال ليسمعني:

ـ "معارض، يتبنى بعض الأفكار الهدامة، غير منتمٍ لأية جماعة أو حركة محظورة، ولم يسبق له المشاركة في أية أنشطة معادية للنظام".

أغلق الملف، وتأملني قبل الحديث..



- "يبدو أنها مرتك الأولى.. عادة لا نتسامح في المرات الأولى.. لكنني سأراعي حالتك الصحية.. لا نريد المزيد من التشويه لصورتنا".

تركني أرحل، بعد أن تشفع لي عرجي.. آه لو علم الحقيقة! خرجت من مكتبه نادمًا على كل لحظة، تحاملت فيها على نفسي وقضيتها في التظاهرات، نادمًا على أحلامي.. نادمًا على أمل راودني في خلق حياة حقيقية لنفسي خارج أرض العجائب.. ليس خوفًا على حياتي، بقدر إدراكي لحظتها لسخافة القضية. في هذه اللحظة، أدركت حقًّا من أنا، ومن هم. تذكرت مكاني المعد في أرض العجائب، وأبي الذي ينتظرني هناك، فقررت ألا أبالي مرة أخرى أبدًا. حاولت تذكر اسم ذلك المعيد، ففشلت، فأدركت أنه ليس سوى واحد آخر منهم..
لا يهم اسمه، لا يهم إن كانت لهم أسماء مختلفة، أم أنهم جميعًا يحملون الاسم ذاته، أو حتى يهيمون في هذه الحياة بلا أسماء أو هويات.. المهم أنني لست منهم، وعليّ تجنبهم كما الجحيم.

في هذه اللحظة، وأمام نظرات علي، أجدني أتساءل إن كان بدر الوكيل هو حقًّا من بدأ كل هذا.. هل يمكن أن ألومه فيما حدث لي، بسبب سؤال منعت من توجيهه له؟ ماذا كان السؤال أصلًا؟ هل من سبيل إلى تذكره؟ هل ما يزال الملف موجودًا إلى الآن في أمن الدولة؟ لماذا أهتم أصلًا، وقد عهدت في نفسي اللا مبالاة؟ لماذا أبادل عليًّا النظرات، وأقول بصوت متهدج:

- "دعني أقابله".

***

البنت تحكي

أنا لا أحب "علي"، وواثقة أنه كذلك لا يحبني.. دعونا لا نخدع أنفسنا بحكايات المراهقات، عن الأميرة والشاطر حسن، أو علاء الدين، أو أيًّا كان اسمه، ذلك الوضيع الذي تقرر الأميرة ـ على غير طبائع البشر ـ أن تهواه، وتحارب الكون لأجله. في الواقع الحسابات تختلف؛ البنت التي تربت على التعالي والغرور، البنت التي تراقب الناس من نافذة برجها منذ ميلادها، البنت التي فقدت عذريتها في السابعة عشر مع مطرب مشهور، تحلم كل فتيات البلد أن يروه، ولو من على بعد مئات الأمتار.. بنت كتلك ليست كأميرات الحواديت الحالمات الساذجات.. لست أنا صاحبة القلب الطفولي الذي يترك شباب النادي المقتولين تحت قدمي، ليحب مجرد نادل. أنا لا أقصد إهانته، أنا فقط أوضح الصورة.. ما بيني وبين علي ليس حبًّا، وإنما هو ـ في رأيي ـ أعظم قوة من الحب. ما يجمعنا هو الاحتياج؛ ربما الأمر يبدو في شكله البدائي كحالة



نفعية عقلانية بحتة، وهو ما لا أنكره، فأنا بحاجة لعلاقة كتلك، تنتزعني من قيم الأب.

كل محاولات التمرد السابقة لم تأت بثمار، فما يهدم معبده ليس ابنة لعوب متعددة العلاقات، طالما أن علاقاتها في حدود المسموح به في بيئتها المحيطة من أبناء الساسة والأثرياء.. لكن النادل، ابن الشرطي البسيط، هو التهديد الحقيقي لتلك المنظومة، التي بناها الأب حولي، وارتاح منذ زمن لاستسلامي لها. علي هو الطعنة الحقيقية في ظهر الأب.. ليس المطرب المشهور، ولا زملاء المدارس الأمريكية.

في المقابل، أعرف أني بدوري لست لعلي أكثر من احتياج.. البنت الجميلة المرفهة تناديه، تدعوه لعالم عجائبي مثير، فكيف يرفض، وهو الشاب الساخن بلا علاقات أو ماض، أو حتى مستقبل؟ كيف يرفض دعوة مجانية للتمرد على واقعه، وأزماته، وسجن أبيه؟ هي منفعة متبادلة إذًا، أو كما أسميتها: احتياج.

لكن هل هذا ينفي المشاعر؟ في رأيي أن الاحتياج شعور أقوى من الحب.. أنا لا أخدعه؛ عليّ رجل يمكن أن أفعل لأجله أي شيء.. ليس ادعاء، وإنما لأني بالفعل أحب هذا. ربما حديثي الدائم عن أحلام زواجنا هو نقطة الادعاء الوحيدة؛ فهبوطي سالمة فوق الشمس، أهون وأقرب للتصديق من احتمال زواجنا! لكنني بالفعل أحب صحبته.. تربطني به خفقات القلب، أخاف عليه، أفكر به قبيل النوم؛ استرجع كلماته وجمال ضحكته، ثم أحلم به في نومي. مشاعر تثقل قلبي، لكني لا أسميها حبًا، فالحب دائم، أما المشاعر الناتجة عن الاحتياج.. فأجلها حتى إشباع الاحتياج. في اللحظة التي سأرى فيها الانكسار في عيني أبي، حين يعلم أي رجل يمتطي ابنته، ستكون هي لحظة سقوط المشاعر.. لن آسف حينها لعلي، فأنا واثقة أني منحته أضعاف ما حلم به يومًا.

***

الكمبيوتر على الفراش أمامي.. والفراش يتوسط حجرة واسعة، وردية الجدران. والحجرة في ڤيلا بها

تسع غرف للنوم، ولا يسكنها سوى أب وأم وابنتين.. والڤيلا في مجمع سكني هادئ، باهت، لفرط العناية بتجميله لا تصدقه، فيبدو كلوحة متكلفة بلا روح أو حياة. في يدي الورقة التي وجدتها على زجاج سيارتي في زيارتي لعلي.. لساعات تأملت وجه البنت، بلا سبب سوى رغبة ربما في اجترار ذلك الحزن، الملون بقدر من الأمل غير المبرر الذي يجتاحني لمرآها.. جودي محمد أسامة، ثماني سنوات. أنقر أحرف اسمها على أزرار الكمبيوتر.. أعثر على الخبر المقتضب في جريدتين فقط. ونسخة من ذلك الإعلان في يدي على الفيس بوك.. لا معلومات مهمة، أو مستجدات.. البنت راحت ولا أحد يهتم، سوى زميل علي الذي حدثني عنه، والسيدة التي وضعت الصورة على الفيس بوك، والتي كتبت تقول إنها أم جودي، بجوار وجه تعبيري يسقط دمعة! حاولت البحث عن المزيد، استخدمت كلمات متعلقة بالموضوع هذه المرة وليس اسم الطفلة، فربما نشر الخبر في موضع ما دون أسماء.. هكذا تعرفت على نوح.

نوح هو طفل آخر في الثامنة، اختفى كذلك في يوم اختفاء جودي نفسه، وبالكيفية ذاتها، وبالتفاصيل ذاتها. وكأنه الخبرنفسه بعد تحويل ضمائره إلى صيغ الذكورة.. نوح نبذه أبواه، فعاش وحيدًا مع جده، وفي ذات يوم الحادث الآخر، عثر على الجد مقتولًا، ولم يعثر لنوح على أثر!

الآن الأمر لم يعد حزينًا، وإنما مخيفًا.. هل هناك علاقة بين الجريمتين؟ وكأنه قاتل متسلسل ربما كما في الأفلام الأمريكية، أو حتى عصابة لاختطاف الأطفال.. أظن أن هذا يقلل تمامًا من احتمالات كون جودي مجرد طفلة هاربة.. لقد اختطفت، وأي محاولات لتخيل أسباب اختطافها لا تخلق صورًا مبهجة، طالما أن الخاطفين لم يطلبوا من أهلها فدية.. هذه كانت من اللحظات القليلة التي أفكر فيها بأبي كمنقذ محتمل..

رجل السلطة القوي، الذي تنكسر له أعين قيادات الشرطة أثناء المصافحة، هو الرجل المناسب للتدخل في تلك الأزمة. ولكن هل يبالي؟ هل تعتقدون أنني يمكن، إن رأيته ـ وهي حالة نادرة ـ أن أبثه شكوتي عن

طفلين فقيرين، لا أعرفهما، ولا تربطني بهما أية صلة، اختفيا؟ هل يمكن أن يثير حديث كهذا في نفسه ماهو أكثر من شكوك في قدراتي العقلية؟ ربما، من يدري؟ لماذا لا أجرب، فالمعجزات تحدث.. منها مثلا تلك المعجزة.. أن يفتح باب حجرتي فجأة، وأجده فوق رأسي دون مقدمات أو استئذان.. لا أذكر متى رأيته لآخر مرة، ولكنني أذكر أنه لم يدخل حجرتي، منذ أن أيقظني في الصباح الأول لعامي العاشر، ليمنحني دمية واعتذارًا متعجلًا لأنه لم يتواجد ليلتها في عيد ميلادي.. ربما هو كذلك يحاول تذكر متى رأى تلك الحجرة لأخر مرة؛ كان يدور ببصره في كل محتوياتها.. ربما يتذكر بشكل مشوه أن الحجرة اختلفت تفاصيلها، منذ أن كانت حجرة ابنة طفلة، الآن هي حجرة شابة جميلة، على وشك إنهاء دراستها في الجامعة الأمريكية.

هل أبادره بسؤال ساخر عن المعجزة التي دفعته لتلك الزيارة؟ أم أنتظر مبادرته، فلا أحرمه من عشقه للمبادرات؟

- "كيف حالك؟".

بمزيد من التواضع الأبوي، جلس بجواري على طرف الفراش.. بادلته التقمص، فاعتدلت في جلستي، كما يليق بابنة حسنة التربية:

- "الحمد لله".

نظراته أجرت مسحًا سريعًا لشاشة الكمبيوتر..

- "ماذا تفعلين؟".

كانت فرصة جيدة لإخباره، على الأقل لاستطلاع مدى رغبته في المساعدة؛ ولكنني اخترت الكذب.. أغلقت الشاشة بغير اكتراث، مجيبة:

- "مجرد أبحاث دراسية".

لو أصر على ادعاء الاهتمام، لسألني عن نوع الأبحاث الدراسية، المتعلقة بخبر اختفاء طفل في جريدة إلكترونية؛ فبالتأكيد هو قرأ العنوان.. وقتها كنت سأواصل الكذب ببساطة، وأخبره أنه بحث عن العنف

ضد الطفل في السنوات الأخيرة.. لكنه ـ وكما توقعت ـ ما كان بقادر على مواصلة الاهتمام ـ ولو كذبًا ـ لفترة أطول من هذا:

ـ "جميل.. اجتهدي.. نريدك أن تنهي دراستك بتفوق".

كان يجب أمام تلك التعليمات أن أهز رأسي موافقة، متشوقة بالقادم من كلمات، فعقلي يخبرني أنها ستحمل إجلاء لأسباب تلك الزيارة..

ـ "لقد حان الوقت".

لم أتوقع رغم هذا أن تكون كلماته جلية بهذه الطريقة، وإلى حد الوقاحة..

ـ "وقت ماذا؟".

ـ "ما تعدين له منذ صغرك.. الخبر الذي تنتظره كل فتاة.. لقد جاءك عريس".

لم أندهش حقًّا، فأنا أعرف أن هذا بالفعل هو ما أعد له منذ صغري. أن أصير بندًا في عقد شراكة ما..

ـ "ومن الذي سيسعدني الحظ بالزواج منه؟".

كنت ساخرة، وحاولت أن أظهر هذا في كلماتي، لكنه لم يهتم..

ـ "تخيلي؟"

السعادة في عينيه أفهمتني أن العريس آت من مكانة عالية، ربما أكثر علوًا من مكانة أبي، ولهذا يسعد. وهذا يعني أنه سيكون عليّ أن أموت من الفرحة، لحظة إعلان اسم الجائزة!

ـ "بالتأكيد ليس رئيس الجمهورية، فهو متزوج!".

ـ "لقد اقتربتِ"

ـ "لا تخبرني أنه ابنه!".

ـ "بل ابن نائبه.. وهذا يعني أنه قد يكون ابن الرئيس القادم".

أعترف أني لم أتوقع هذا.. يجب أن أشهد لأبي بالبراعة، فقد نجح في إسقاط صيد ثمين.

- "ومتى سيتم الأمر؟".

لم أتوقع أن تكون كلماتي على هذا القدر من العملية، وربما هو كذلك لم يتوقع..

- "لا تتحدثي عن الأمر، وكأنه صفقة".

- "ما هو إذًا؟".

- "حسنًا.. هو صفقة.. ولكن سندعي أنها ليست كذلك.. وسنفرح.. كما تفرح أية عروس".

ابتسمت لتوي، بادئةً طريق ادّعاء الفرحة، فأجابني:

- "هذا أفضل".

ثم نهض مكملًا:

- "سيحضر مع والده الليلة لتناول العشاء معنا.. وبالطبع لكي يراك عن قرب.. فتأهبي.. الآن عبء إتمام

تلك الزيجة متوقف على براعتك".

ـ "اطمئن.. سأرفع رأسك".

أفلتت منه ابتسامة مباغتة خارجة عن سياق الحديث المعلن؛ مما يؤكد أن سخريتي بلَغتْه، بل وربما راقته! لكنه وأد الابتسامة سريعًا، وغادر الحجرة.

والآن دعوني أصارحكم بأمر.. لقد شعرت بالكثير من الإطراء، والكثير من الفخر، بل وتخيلتني سيدة أولى مستقبلية. هل يمكن لفتاة عاقلة أن ترفض فرصة كهذه؟ لكن الحقيقة أنني لم أكن عاقلة.. لن أدعي المثالية، فأنا لا أفعل هذا لأجل مبادئ، أو لأجل الانتصار للحب، فقد اتفقنا أن الحب لا وجود له في حياتي.. أنا أفعل ذلك فقط لأجل إذلاله، لأجل بعض المتعة الصبيانية.. أنا لا أرفض العريس،
ولا أرفض الفرصة، لكنني ـ إن كنت حقًّا أفهم نفسي ـ أرفض أن يعاملني الأب كشيء، لا كإنسان.

رغم أن تفكيرًا كهذا يبدو مثاليًا، ومحمّلًا بكثير من المبادئ التي أنكرتها منذ قليل، لكنه يروقني، ويتسق مع كل لحظات حياتي الحرجة، التي احتجت فيها الأب بجواري فلم أجده، فتعلمت أن ألتمس الأمان من حارسي الخاص، وأن أبحث عن العون عند الخدم، أو عند المحامي، وأتناسى أن الأب يجب أن يكون حاضرًا، وابنته تتألم في مستشفى فاخر.. أو وهي تواجه أزماتها الطفولية مع زملاء المدرسة، حتى يتم استدعاء ولي أمرها، بعد أن كادت تفقد فتاة عينها بسبب ضربة قاسية بحقيبتها المدرسية.. أو وهي تتعرض لتحرش على هامش حفل منزلي أنيق، وهي بعد في التاسعة من عمرها، على يد رجل من شركاء الأب؛ ليكذبها الأب ويصمتها، ويسكب الشمع على شفتيها، كي لا يخسر شراكة تساوي عشرات الملايين.. فلمَ يجب أن أترفق به؟ لم لا أواصل طريقي؟ لم لا أتسبب له في فضيحة الليلة؟ لم لا أهرب إلى أحضان الحبيب الفقير؟ وليسقط الأب من ذروته، إلى قاع، ما كان يمكنه أن يتخيل وجوده حتى!

العجوز يحكي

طوال فترة اختفائي الاختياري، لم أزر أحلام زوجتي.. لا أعرف إن كنت فقدت قدرتي على فعلها، كما أحاول إقناع نفسي، أم أني فقط فقدت رغبتي. عندما تزوجت البنت الصغيرة الجميلة، كنت مسحورًا بمذاق شهدها.. فلما اعتدته، وضاعت سكرته من دمي، وجدت نفسي أحصي نظرات الرجال العالقة بجسدها، وكلماتهم المعسولة في لقاءاتنا الاجتماعية، والأيدي التي تطيل السلام، حتى وأنا واقف بجوارها. وجدتني يومًا بعد يوم أفرض عليها حصارًا ظننته محكمًا.. قلَّت مرات خروجها، سواء وحدها أو حتى معي. في الحفلات كانوا يسألونني عنها، بلا مبالاة بجرح كبريائي بلهفة أصواتهم، وكنت أجيب متحججًا بأكاذيب.

مع الوقت، وجدتني ألومها وألوم جمالها.. هل ما صار كان جريمتها؟ لماذا لم أحاول أن ألومهم هم؟ ألوم جشعهم واشتهاءهم ما لا يملكون؟ أتساءل الآن، وأنا على هذه الحال من الوهن، ممددًا في فراش سجاني

السابق: هل كنت أخشاهم، من قبل حتى أن يقع ما وقع؟ هل كانت بي قدرة لتمزيق شباكهم عن زوجتي، وهم الذين ما كانوا يبالون بغزلها أمام سمعي وبصري؟.. بدلًا من هذا، وضعت الثقل بكامله على كاهلها؛ منعتها من الخروج تمامًا، حتى في زيارات لأهلها.

في هذه المرحلة بدأت في مراقبة أحلامها. تعلمت كيف أفعلها من صديق عمل سابقًا في منصب مرموق بأمن الدولة، وهو الذي طوّرهذه التقنية التي كانت تستخدم لمراقبة أحلام المعارضين. من هنا، صرت مدمنًا على اقتحام رؤاها وخيالات عقلها الباطن. كل ليلة، أفتش هناك عن أي وجود لهم.. لن أزعم أنها بريئة تمامًا، ففي أحلامها عثرت على رجال كثر، لكن ليس أحد منهم؛ ربما نجوم سينما، أو فتيان صغار من ماضيها.. لكن ليس أحد ممن أبحث عنهم. ولما سرت في طريق الاطمئنان إلى جانبها، وقعت الواقعة.

الليلة عاودتني الرغبة ذاتها من جديد. ترى بم تحلم الآن؟ أعرف من الأخبار التي نقلها لي عبد النبي ذات

يوم، في محبسي، أنها تسعى لاستصدار شهادة وفاة لي؛ لتتمكن من الزواج.. فهل ستتزوج صفوت بك تحديدًا؟ أم أن ما كان بينهما ليس بالشيء الجدي ليتطور إلى زواج؟

أغمضت عيني، واستدعيت أحلامها.. أول ما تعلمته عن اقتحام الأحلام، أن الإنسان لا يتوقف عن الحلم طيلة النوم، هو فقط أحيانًا ما يستيقظ وهو لا يتذكر ما حلم به، أو يتذكر أصلًا أنه كان يحلم. لكني بمجرد الدخول إلى عالم أحلام شخص ما، فلا بد وأن أجده هناك، طالما كان جسده نائمًا.

تحركت الروح في سرداب الألوان السبعة قاصدة روحها، حتى بلغتها.. كانت تداعب شبلاً صغيرًا على أرض عشبية، على مقربة من أسد غافٍ.

كنت عازمًا هذه المرة ألا أكتفي بالاختباء والمراقبة الصامتة.. سأواجهها، أعرف أن من الخطر أن يتواجه مقتحم الحلم مع الحالم، لكن لم أبالِ.. فقط وجود



الأسد أرجفني، فكدت أعدل عن خطتي، لولا أنها استدارت قبل أن أجد لنفسي مخبئًا، فرأتني:

ـ "بدرا!".

قالتها في دهشة تليق بلقاء حقيقي، لا حالمٍ.. أشرت إلى الأسد..

ـ "هل هو خطر؟".

بدت آسفة، وهي تقول:

ـ "مجرد عجوزعلى حافة الحياة".

لم أفهم إن كانت تقصده أم تقصدني! نهضت عن العشب، فانفلت الشبل من بين يديها، ومضى ليرقد لصق الأسد النائم.. تقدمت نحوي، مدت يدها تلمس وجهي:

ـ "تبدو عجوزًا جدًّا".

ـ "وأنت تبدين شابة جدًّا".



ـ "هذا لأن الحياة لم تتوقف".

ـ "هل افتقدتِني؟".

ـ "الحياة لا تتوقف".

ـ "وماذا عن الآتي؟".

ـ "الحياة لن تتوقف".

ـ "لكن ما أنا فيه من صنعك".

ـ "العجوز صنيعة الرجل، والرجل صنيعة الطفل، والطفل صنيعة عجوز آخر، لا يرى الخير سوى في آثار خطواته!".

ـ "ولكنني رأيتك.. رأيته يعتليك في فراشي"..

بدا على ملامحها ضيق:

ـ "من أنت؟"

احتد صوتي:

ـ "أنا زوجك".

ـ "لكن هذا ليس حقيقيًّا".

كانت ترتجف، وعلى ملامحها خوف.. هل أدركت أني حقيقي؟ وأني أقتحم حلمها؟ دخان خفيف اقتحم المشهد حولنا، يبس العشب، وتلون عالمنا باللون الأصفر الكئيب، لكنني لم أستطع ـ رغم هذا ـ الترفق بها:

ـ "أنت خائنة.. وأنا جبان".

ـ "بل أنت الخائن.. وأنا الجبانة".

رغم ارتعاش الصوت، إلا أنها لم تزل تستفزني برودوها، فأواصل الضغط:

ـ "هل أحببتِهِ؟ أم كانت صفقة؟ هل تقاضيت ثمن عهرك؟".

ابتسمت:

- "بل أنت تقاضيته".

سمعنا زئيرًا وحشرجة.. التفتنا، فكان الشبل يلتهم الأسد العجوز. انشغلت بمتابعة المشهد، حتى استدرت فلم أجدها! كيف يمكن أن تغادر حلمها وتتركني وحيدًا فيه؟ هذا ليس من كرم الضيافة بالتأكيد! على امتداد البصر، ليس ثمة سوى عشب أصفر، وشجرة وحيدة.. شجرة وحيدة في حقل شاسع! أيعقل أن تكون هي؟

تقدمت من الشجرة.. جذعها يشبه رجلًا منحنيًا، تنبت الأفرع من ظهره وكتفيه.. الرأس المتخشبة مرغمة على مواجهة الأرض اليابسة. ماذا تفعل هذه الشجرة في حلمها؟ هذه الشجرة تخصني، أيعقل أن الأحلام تداخلت دون أن أشعر؟!

-"تحدث بما شئت".

بادرتني الشجرة، فقلت:

- "ماذا عن الآت؟".

ـ "الحياة لن تتوقف".

لماذا تردد الشجرة كلمات تلك الداعرة؟!

ـ "ماذا عليّ أن أفعل؟".

ـ "الأرض تطلب المزيد".

ـ "ماذا عليّ أن أفعل؟".

ـ "اهبط في عمق الأرض لترتقي".

ـ "ماذا عليّ أن أفعل؟".

ـ "الزمن ليس لك.. وأنت لست ـ حقًّا ـ أنت".

ـ "إذًا، من أنا؟".

ـ "اسألني أجيبك".

ـ "من أنا؟".

ـ "اسألها تجيبك".

ـ "من هي؟".

ـ "ارحل، تبلغها".

عندها استيقظت.. لدقائق فقدت اتزاني، أكان هذا حلمي أم حلمها؟ هدهدتني الحيرة، حتى غبت في نوم عميق، أيقظني منه عليّ حين عودته للبيت، وبصحبته ضيف أعرج.

***

الولد يحكي

جلسنا أمامه كتلميذين.. على وجهه، وفي اعتدال انحناءات البدن، بدا أن حالته الصحية تتجه إلى التحسن. الشرفة مفتوحة عن أخرها، والشمس تضرب جسده، فيغمض عينيه مستمتعًا بعناق اشتاق إليه طويلًا.. احترمنا صمته. حمزة كان منفعلًا، وإن حاول إخفاء مشاعره. لم أفهم إن كان غاضبًا أم متحمسًا.. في جسده رعشة خفيفة، تنفسه أسرع وأعلى صوتًا من المعتاد، وعيناه تقريبًا لا ترمشان فوق وجه الرجل العجوز، وكأنما يسعى لحفظ كل تجعيدة في جلده المتهدل على جمجمته، قال العجوز:

ـ "الحياة يا أولاد عاهرة لعوب! تلك هي خلاصة خبراتي، فاغتنموها".

نطق حمزة، فكان في صوته تهدج:

ـ "حدثنا عما عشته، ودعنا نحن نقرركيف نصف الحياة".

أيدته في مطلبه..

ـ "أنت مدين لي بحكاية.. على الأقل لإجلاء الحيرة.. فليس من طقوس حياتي أن أعثر على شخصيات شهيرة مختبئة في بيتي!

تنهد العجوز.. فتح عينيه.. عينان مجهدتان، أكسبهما العمر شفافية ووقاحة، فما عادتا تخفيان شيئًا:

ـ "أنا ما عدت أعرف من أنا.. الشجرة حدثتني أن أنا لست حقًا أنا.. فمن أنا؟!".

انفلتت على وجهي ابتسامة ساخرة.. كدت أعلق متهكمًا، لولا أن نظرات حمزة كانت جادة للوجه العجوز، وعلى وجهه أمارات تفكُّر، فاعتقدت أنه ربما فاتني شيء من عمق الحديث، فآثرت الصمت، وقال حمزة:

ـ "أنت معارض سابق.. ورجل سلطة حاليًا".

هز العجوز رأسه..

- "أنا معارض سابق.. ورجل سلطة سابق.. ولا شيء حاليًا!".

- "احك، ودع الحكم لنا".

تنهد، فأفرغ هواء صدره المختنق. تجعيدة أو اثنتان اختفتا عن وجهه، وبدا مرتاحًا وهو يشرع في سكب الكلمات..

- "في دقيقة كنت أظن وقع خطواتي على الأرض دبيبًا إلهيًا.. وأن الحكمة تتطاير من نثر نعلي.. كنت أظن الكون ملكي.. أنا القوي، الحكيم، الآمر، الناهي. وفي دقيقة تالية، أدركت أني لا شيء.. أدركتها بأقسى طريقة ممكنة.. عدت إلى بيتي مبكرًا عن الموعد المفترض.. فخامة الرئيس قرر دون مقدمات تأجيل الاجتماع المفترض مع رؤساء تحرير الصحف.. في بيتي وجدته.. لن أسميه بأكثر من صفوت.. وهو ليس اسمه الحقيقي.. بل هو الاسم الذي اخترته له في محبسي، وتداولته في أحلامي وذكرياتي عن تلك الليلة.. أتعلمان لم؟ لأني مازلت أخشى مجرد ذكر

اسمه.. نعم.. هذه هي حقيقة الإله الذي كنته.. أتدريان ما فعلت عندما وجدته في فراشي؟

هذه المرة صمت. سؤاله كان بحاجة لجواب، وحكايته بحاجة لاستفهام لتتواصل.

قال حمزة بشكل فاجأني:

ـ "أنا لا أريد أن أعرف".

كان مشفقًا على العجوز من ألم ما فات، وكنت أنا أتحرق للمعرفة.

ـ "أنا أريد!".

ابتسم العجوز، وقال متعلقًا في إجابتي:

ـ "لم أفعل شيئًا.. تسمرت مكاني.. هي لملمت جسدها وبكت.. وهو نهض باعتيادية وارتدى ملابسه، وسألني عما دار في اجتماع الرئيس! فأجبته: "أنه تأجل!". وكانت هي الكلمة الوحيدة التي نطقتها.. طلب مني أن أزوره في مكتبه في الصباح التالي.. قال إن منصب



رئيس مجلس إدارة مؤسسة صحفية كبرى سيخلو في غضون أسبوع، وهم بحاجة لشخص موثوق به لتوليه.. قالها ببساطة وغادر، وببساطة غادرت وراءه، ولم أعد مرة أخرى..

تبادلت مع حمزة نظرة سريعة مثقلة بما لا يصح أن يقال.. بعدها نهضت قائلًا:

ـ "أنا جائع.. لماذا لا نأكل شيئًا؟".

لكنه أوقفني..

ـ "أبوك ليس بالرجل السيئ.. هو فقط مثلي.. ترس يدور في آلتهم.. لا يعرف لنفسه وظيفة غيرها، ولا يملك إرادة التوقف".

ضايقني أن يجرجرني إلى مناطق عاطفية حول رجل، لم أعهد يومًا أن له قلبًا في صدره.

ـ "لكنك توقفت".

ـ "أنا تدمرت.. وجدت الصفعة التي أفاقتني.. لكنني لم أستطع أن أتوقف أو أغادر عالمهم، سوى بإلقاء الماضي والمستقبل تحت حذائي، ومغادرة العالم أكمله".

ـ "حتى وإن كان، فهذا لا يجعل منه ملاكًا".

ـ "هو ليس ملاكًا، هو مجرد إنسان مفطور على ما يفعله".

لحظتها جلست.. ربما لأنني لم أعد راغبًا في إطعامه، أو ربما ما عدت متحمسًا لإنهاء الحوار.. طالما أنه راغب في الاحتراق بذكرياته، فلأدعه يعانق الجمر حتى، ولا أبالي.

ـ "في مرة، وبعد أعوام من الصداقة، سألته بين جد وادّعاء مزاح، إن كان نادمًا على ما كان يفعله بشباب عاجز بلا حول
ولا قوة في المعتقل.. فأجابني ببساطة: ولماذا أندم؟! هذا عملي، وهم بأفعالهم الإجرامية الخارجة عن النظام من وضعوا أنفسهم في هذا الموضع..."

قطع حديثه ليبتسم، فما رأى على وجهينا سوى التجهم، فتابع..

ـ "هكذا هو.. بكل ذرة في كيانه يؤمن بعمله، وبقادته، وبنظامه.. حتى أني خفت لحظتها أن أتمادى في المصارحة، وأخبره أني كنت واحدًا من هؤلاء الشباب ذات يوم".

كان ما يطل من عيني لحظتها كراهية وقحة لا تبالي بالتخفي..

ـ "وما فعله بأمي؟! هل كانت كذلك من أعداء البلد؟".

هز رأسه:

ـ "أنا لا أعرف كل ما دار بينهما، ولا أستطيع أن أحكم.. لكنها كانت مريضة، رحمها الله".

ـ "هو من أمرضها".

هز رأسه بقوة أكبر، كان منهمكًا في الدفاع عن صديقه الراحل، وكأنما يدافع عن وجوده هو..

- "أنت لا تعرف ما فعلته أمك.. لقد كادت تقضي على مهنته.. تقضي عليه تمامًا".

رغم كراهيتي له ولحديثه المتعالي عن مأساتي الشخصية.. كراهيتي حتى لنبرات صوته، إلا أن ماقاله كان مثيرًا لفضولي، بقدر كافٍ لأن أسأل:

- "ماذا تقصد؟"

أشار إلى حمزة..

- "هو حديث لا يصح أن يتردد أمام غريب".

قلت له بغرض إغاظته:

- "أنت غريب.. ولكنك تعرفه!".

ربما أغاظته كلماتي بالفعل، أغاظته بقدر جعله يتخلى عن حذره، ويحكي:

- "أمك بلغ بها الجنون أن ذهبت إلى قسم الشرطة، وتقدمت ببلاغ ضد أبيك، تتهمه بالتوقف عن معاشرتها

جنسيًّا!".

كان بالفعل يتحدث بما أجهل، فصمتّ احترامًا لأوان الصدمة!

- ".. ولك أن تتخيل ما حدث.. كانت تسلية ومصدر تفكه لقسم الشرطة بأكمله، وحتى المأمور، الذي زاد من الفكاهة قدرًا، فأرسل في طلب أبيك، ووبخه أمامها، وأمره أن يأخذها الآن إلى البيت ويعاشرها! تخيل كم كان لهذا أثر مدمرعلى مكانته وهيبته؛ خاصة بعد أن تجاوزت الكلمات جدران القسم.. حتى رؤسائه حققوا معه وجازوه، واتهموه بالتقليل من هيبة الشرطة، ولولا ملف خدمته الناصع لصارعقابه أشد.. لهذا قرر إيداعها المستشفى. لقد كان قرارًا مؤلمًا له، صدقني.. لكنها دفعته إلى هذا".

عند هذا الحد لم أحتمل، يحق له أن ينحاز لصديقه، وأن يجمل صورته، ولكن ليس على حساب صورة أمي..

ـ "وما الذي دفعها لهذا؟ ما الذي أطار صواب المرأة العاقلة الصبورة؟!".

ـ "كما قلت لك.. لا أستطيع أن أحكم في هذا".

حمزة هو من أجابه لحظتها، وكأنما ينطق بلساني:

ـ "لا تحاول إذًا.. فكما أخبرتك.. نحن لا نريد منك أحكامًا.. خاصة وأنك في رأيي غير مؤهل لإطلاق الأحكام.. ولا تظن أن تجاعيد وجهك تؤهلك لهذا.. فأنت في النهاية رجل عاش ليبلغ أرذل العمر، قبل أن يكتشف حقيقة مبدئية بسيطة: إن الحياة عاهرة لعوب!".

كان هجومًا قاسيًا من حمزة، فما عدت أفهم إن كان متعاطفًا مع الرجل أم يمقته.. حاولت تغيير مسار الحديث للنقطة التي تهمني أكثر من سواها، فلا أعتقد أن بإمكاني احتمال بقائه طويلًا في بيتي..

ـ "وما خطوتك التالية؟".

كان ناظراه لم يزالا معلقين بعيني حمزة، وكأنما لم يزل يبحث عما يجيبه به.. لكنه في النهاية التفت نحوي مجيبًا كلماتي:

ـ "سأخرج باحثًا عن شجرة الحكمة".

لم يغب عني التقاط جنون كلماته، فالجنون ليس ببعيدٍ عنه في رأيي، أو ربما هو ليس ببعيد عن أمنياتي له؛ فأن يتذوق من الكأس الذي ذاقته أمي ـ والتي يتحدث عن مصابها باعتيادية ولكنة اتهام ـ لهو أمر بالغ العدالة.. لكن حمزة صدمني بقوله:

ـ "شجرة الحكمة مجرد أسطورة".

التمعت عينا العجوز، وامتدت نحو حمزة بنظرة رجاء:

ـ "هل سمعت عنها؟".

ـ "بلى.. ولكنها مجرد أسطورة".

ـ "لا أعتقد.. شجرة الحكمة حقيقة".

بأي جنون يتحدثان؟! حمزة يرتجف انفعالًا، والعجوز أحمر الوجه مختنق الصوت..

ـ "يمكننا الوصول إليها.. أنا فقط في حاجة إلى مساعدة".

لحظتها كان محتمًا عليّ أن أنفجر فيهما..

ـ "أنتما مجنونان!".

***

العجوز يحكي

يقولون إنه في مكان ما، توجد ڤيلا قديمة من ثلاثة طوابق، بجدران متسخة مسودة، بلا أية حراسة، ولا حتى خفير أو بواب.. هي مبنى حكومي فائق الخطورة، لا يحرسه سوى استحالة وجوده حقيقة؛ فمادام لا أحد يصدق بوجود مكان كهذا، فلماذا سيبحث عنه؟! وأؤكد لكم أن كل من سمع عن هذا المكان ضحك، أو سخر، أو سبَّ محدثه، أو على الأقل ظنَّ به ضعف العقل. فما يحكى أن في هذا المبنى قاعة مهولة الاتساع والارتفاع، تتشكل جدرانها من آلاف الأرفف، تحوي الملفات الأمنية للشعب كله، الأحياء منهم والأموات، وحتى الأجنة في بطون أمهاتهم، حين يختار لهم آباؤهم أسماء.

كلنا مراقبون؛ مليارات الملفات يتم صبها بلا كلل في هذا الأرشيف الأسطوري، تحت إدارة موظف واحد فقط، موظف يعرف كل شيء، يحفظ مكان كل ملف، واسم صاحبه، ومحتواه، وحتى المعلومات التي رأت



أجهزة الأمن أنها غير مهمة، أو غير قابلة للتصديق.. موظف لديه القدرة على الطيران، فقط ليتمكن من بلوغ الارتفاع المهول للأرفف العلوية. في هذا المكان سأجد ضالتي، سأجد بالتأكيد في هذا الأرشيف ملفًا أو ملفين على الأقل يذكران موضع شجرة الحكمة. ألم يخبرني عبد النبي مرة أنه سمع عنها من معتقل أثناء تعذيبه؟ فقط.. لو أنني تمكنت من إيجاد هذا الأرشيف!

الموقع بالغ السرية، لا يعرفه سوى صفوة الصفوة، حتى قديمًا، في عز سطوتي، إن كنت سألت أولي الأمرعن موقعه، ما كانوا ليجيبونني.. لكني ما كنت لأسأل، لأني ـ ببساطة ـ ما كنت أؤمن بوجوده.. إلا أنني الآن صرت مؤمنًا.. آمنت بعد أعوام الحبس الانفرادي.. آمنت بعد أن اختبرت بنفسي جانبًا من قدراتهم الخارقة، كمراقبة الأحلام.. آمنت بعد أن رأيت كيف تذل أعناق الرجال، أمام نظرة من أعينهم المهابة.. آمنت، لأنه ليس بعد معاينة الآيات كفر.

الولدان يروحان ويجيئان أمامي، يجهزان المائدة بطعامها. في طريقهما، وحين الالتقاء، يتهامسان.. حتى على البعد تتحدث عيونهما.. ربما يتناقشان عما يفعلانه بي. هل أخبرهما عن بحثي عن الأرشيف؟ هل بإمكانهما المساعدة؟ أولًا، عليّ أن أنظر إلى أي مدى يمكنهما اتباعي في رحلة البحث عن الشجرة. الولد الأعرج ـ إلى الآن ـ هو الأكثر تهيئة للرحلة، من ابن عبد النبي. فهل أطلبها منه صراحة؟ هل أزين له الفوائد التي قد تعود عليه، فأغريه بها؟ المؤكد أني بحاجة إلى معين على رحلتي، والمؤكد أنه ليس بأفضل معين بتلك الإعاقة البدنية، ولكنه قد يكون المتاح الوحيد أمامي، والأهم أن مساحة الصبر غير ممتدة أمامي بما يحتمل التباطؤ، وعليَّ أن أقرر سريعًا متى سأفعلها، وكيف سأفعلها.

جلسنا لنأكل.. لم يكن أشهى طعام أكلته، ولكنه يكفي لاستعادة قدر من القوة.. منذ صباح اليوم، مع إعادة اكتشافي للشمس والهواء والناس، صرت أشتاق لفراشي الوثير في بيتي الفخم، والطعام الفاخر الذي



كان يلقى نصفه في القمامة يوميًا.. هل أشتاق إليها؟ إلى الحياة التي هربت منها؟ وإلى أي مدى أنا مستعد للعودة؟ وهل لي ـ من الأصل ـ عودة؟ هل يسامحني صفوت بك؟.. توقف الطعام في فمي، أحدهما سألني:

ـ "ما بك؟".

هل أخبره أن شعور العبد الذليل يعاودني؟! هذه الأحاسيس المفاجئة تعمق فجوة روحي، فلا تعينني على إيجاد الجواب المنشود عن هويتي.. وحدها شجرة الحكمة ـ كما أتيقن يومًا وراء يوم ـ هي القادرة على مساعدتي في فك شفرة تلك المعضلة؛ من أنا؟ ومن هم؟

الأجواء على مائدة الطعام لم تكن مريحة، التوتر يخنق الكلمات والأنفاس، فلا يدع مجالًا سوى لأصوات خجولة اعتيادية لتناول الطعام. جرس الباب أفسد علينا صمتنا، فتأمل كل منا لفترة ما في عيني الآخرين، مبديًا دهشة.. كنا قلقين، وكأنما في اجتماعنا حول الطعام ما يجب أن نخفيه. أدركت وقتها قدر

شحنة التوتر التي يبثها وجودي في القلبين الشابين.. ابن عبد النبي ضحك مصارعًا توتره، فبهتت ضحكته..

ـ لماذا القلق؟! إنه فقط جرس الباب.

قام عن المائدة قاصدًا باب الشقة. فتحه، فلم نتمكن ـ بسبب زاوية جسده ـ من رؤية القادم. بلغنا حديث متوتر هامس، لم يصعب علينا تمييز الصوت الأنثوي لأحد طرفيه.. انزاح بعدها جسد ابن عبد النبي، لتتقدم منا تلك الجميلة. بابتسامة مشرقة قالت:

ـ "مساء الخير".

فلم أدر إن كان عليّ وقتها أن أقلق لاتساع رقعة العارفين بوجودي، أم أن عليَّ ألا أهتم؟

ـ "ياسمين.. صديقتي".

بجرأة صححت قوله..

ـ "يقصد حبيبته".



وجهت نحوه نظرة لوم وابتسامة ملطفة:

ـ "خجله فقط هو ما يمنعه من الاعتراف".

بادلها ابن عبد النبي الابتسام، ثم أشار نحونا:

ـ حمزة، مدرس زميل.. وهذا..

أمام وجهي توقف لسانه وكفه الممدودة بالتعارف، مفسحًا المجال لي لتقديم نفسي كما شئت، فقلت معلنًا اللامبالاة:

ـ "بدر الوكيل.. صديق والده".

كما توقعت، لم يجذبها الاسم، ولم تلتفت حتى نحوي ولو بهزة رأس، وكأنها لا تراني أو تسمعني.. عيناها تعلقتا بوجه الولد الأعرج. تقدمت منه بلهفة، وجلست على المقعد المجاور له:

ـ "أنت حمزة سعد؟".

فتحت حقيبة يدها، وأخرجت ورقة مطوية:



ـ "أأنت صاحب هذا الإعلان؟"

الشاب أبدى توترًا، قدرت أن مصدره ـ في الغالب ـ عدم اعتياده محادثة الفتيات.. ابن عبد النبي أبدى توترًا كذلك، ربما بسبب الاجتياح الجريء لتلك الحبيبة لمجلسنا. بشكل ما بدا لي الموقف مسليًا، بمقدار إثارته ذاته للتساؤلات، فقررت تنحية التساؤل لحساب المتعة.. الولد الأعرج ألقى نظرة على الورقة الممدودة تجاهه، وهزّ رأسه.. من حقيبتها أخرجت الفتاة ورقة أخرى:

ـ "اقرأ هذا".

فض الشاب الورقة وقرأها، لتتبدل ملامحه ويختفي توتره، ويشحن بشجاعة تكفيه ليوجه نظراته في عيني محدثته للمرة الأولى:

ـ "ما معنى هذا؟".

ـ "ربما معناه أن الأمر أكبر مما اعتقدناه".

ـ "وكيف لم تربط الشرطة بين الحادثين؟!".

كان منفعلًا؛ يصيح فيتطاير من فمه بقايا طعام غير مبلوع.. تدخل ابن عبد النبي مطالبًا بحقينا في الفهم:

ـ "عم تتحدثان؟".

بكلمات حماسية أجابته الفتاة:

ـ "هذه صورة لخبر وجدته على الإنترنت، يحكي عن اختفاء طفل اسمه نوح، في اليوم ذاته، وبكيفية اختفاء جودي ذاتها".

كالعادة، كان عقلي مدربًا على التقاط تلك الإشارات البسيطة، التي قد لا تستوقف أحدًا، فلم أتعجب ألا يلاحظ هذا غيري..

ـ "نوح وجودي! أهي مصادفة؟".

سألتني:

ـ "ماذا تعني؟".

ـ "ألم تنتبها للمفارقة؟! جودي ـ أو جوديّ ـ هو اسم الجبل الذي رست عليه سفينة نوح".

بدا التفكير على وجهين، والجمود على الوجه الثالث، ثم قال الولد الأعرج:

ـ "دعنا نفترض الآن أنها مصادفة.. وهي في الغالب كذلك".

متبرمًا تدخل ابن عبد النبي في الحديث:

ـ "يبدو أن عدد مجانين جودي في ازدياد".

مساحة العلاقة بينه وبين الفتاة ـ كما بدا لي ـ كانت تسمح بأن تجيبه بصرامة:

ـ "إن كنت لا تهتم، فلا تسخر.. لا داعي لأن تبرهن لنا طوال الوقت أن لا قلب لك".

الولد الأعرج كرر تساؤله، وكأنما لا يسمعهما:

ـ "وكيف لم تربط الشرطة بين الحادثين؟".

ـ "الشرطة لا يعنيها الأمر من الأساس".

أعاد قراءة الورقة في يده:

ـ "ربما عليّ أن أبحث بنفسي.. أن أجد طرف خيط ما.. ربما".

لحظتها، قرر ابن عبد النبي أن يجلس، وأن يحاول إدعاء الهدوء.. كلماته كانت للفتاة وحدها:

ـ "حسنًا، لنفترض أني أملك قلبًا في رقة قلوبكم ذاتها.. لكني لم أزل لا أفهم.. لماذا تهتمين بهذه القصة؟".

نظراتها إلى عينيه كانت غاضبة.. توقعت أن تنفجر، لكنها صمتت وأشاحت بوجهها. لو طلب رأيي لحظتها لقلت إنه لا إجابة عندها.. يمكن إذًا احتسابها كنقطة لصالح ابن عبد النبي.

ـ "ماذا عن الشجرة؟".

قلتها، فرأيت الاهتمام في عينين، والضجر في عينين، وتساؤلًا في عينين، قالت صاحبتهما:

- "أية شجرة؟".

كان عليّ أن أحكي من جديد حكاية الشجرة.. هذه المرة ألقيت بكامل ما في جعبتي، كل التفاصيل والحكايات وحتى الإشارات المبهمة.. حدثتهم حتى عن الأرشيف، وعن خطتي البسيطة للوصول إلى مكانه..

- "مراقبة الأحلام.. هو فن أجيده، وأظنني قادر على تطويره، لأتمكن من استجواب الحالم.. في الحلم ستكون أبواب العقل مفتوحة، وسأحصل على ما أريد.. وأنا أعرف تحديدًا الشخص المناسب، والذي بالتأكيد يعرف مكان الأرشيف".

كنت أتحدث بحماس، متجاهلًا شرود الصدمة في زوجين من الأعين، صابًّا اهتمامي نحو اطمئنان التصديق في عيني الولد الأعرج.. ابن عبد النبي نهض منفعلًا:

- "كفانا جنونًا".

برفق أمسك ذراع خليلته يجذبها:

ـ "دعينا نجد مكانًا هادئًا نتحدث فيه".

ثم أشار نحوي..

ـ "وأنت.. أفضل ألا أجدك هنا حين عودتي".

***



البنت تحكي

في هذه اللحظة ما عدت أدري ما دهاني.. ربما هو اضطراب المراهقة الذي قرأت عنه، أو ربما هي فقط شخصيتي الهوائية المتذبذبة.. ربما أنا مجرد فتاة بشعة مدللة تريد كل شيء في الوقت ذاته.. لا أستطيع صياغة المبررات، فقط أعرف يقينًا أني ما عدت أعرف يقينًا ما أريد!

لقد استعرت من صديقة لي مفتاح شقة مغلقة، كانت تقابل فيها أزواجها العرفيين، عازمة أن تكون عشًّا صغيرًا لفقرة تمردي الأكبر مع علي. حملت حقائب ملابسي في حقيبة السيارة، وقدتها عائدة إلى هذا الحي الحقير. وطأت من جديد الشارع القذر الخانق، متجاهلة هذه المرة نظرات وقحة، وتهامس هو بالتأكيد عني، وتعليقين أو ثلاثة قيلا بصوت عال، يقصدان جرحي دون مباشرة. وفي رأسي مخطط مجنون عن زواجنا المرتجل، وصور مموهة لأبي، وهو يستقبل مني الخبر، في رسالة مقتضبة وصورة

تجمعني بعلي على هاتفه.. لكنني الآن، وأنا محشورة مع أميري المزعوم في سيارتي المكيفة، أجدني أريد شيئًا آخر، لا أدري ما هو!

- "هل ما قاله صحيحًا؟"

نظر إليّ مشمئزًا، ومن باب تكذيب ما سمعه ربما، سأل بلا داعٍ:

- "من تقصدين؟".

- "ذلك العجوز.. حكايته عن الشجرة".

ساخرًا أكمل:

- "... والأرشيف السحري.. والرجل الطائر.. بالتأكيد كان صادقًا، فموظفو الأرشيف الطائرون موجودون حولنا في كل مكان!".

أغاظني فاحتديت:

- "لا داعي للسخرية".

ـ "وهل كان سؤالك جادًّا؟!".

إصراره على المضي قدمًا في بناء ذلك الحاجز بيننا أجبرني على الصمت؛ فقط لأحصل على جولة إضافية لمنازلة سؤال: ماذا أريد؟

ـ "كيف تصدقين هذا التخريف؟".

قالها بعد صمت، بلهجة لينة، كاعتذار عن لامبالته كما أعتقد:

ـ "صديقك يصدق.. وهو يبدو لي إنسانًا راجح العقل".

ضحك متوترًا..

ـ "حمزة مسكين.. معاق.. لا ينال اهتمامًا من أحد.. وحياته فارغة.. هو في حاجة إلى الإيمان بأي شيء.. والتعلق بأية قضية".

نسخت ضحكته متعمدة، ثم قلت:

ـ "أنت تتحول الآن إلى طبيب نفسي!".

أوقفت السيارة في ظل شجرة ضخمة على الكورنيش، مكان يصلح لتبادل كلمات عن العواطف والأشواق المتقدة، وربما قبلتين قصيرتين مخطوفتين من المارة، لكني لم أقل سوى..

ـ "يمكنك أن تنزل هنا إن شئت".

نظر إليّ مذهولاً، ثم غاضبًا.. يكاد شهريار الساكن في عقله أن يقفز من عينيه ليطيح برقبتي، بيديه لا بيدي مسرور.. لا أعرف لماذا شعرت أنني في هذه اللحظة بحاجة ماسة لمواصلة استفزازه..

ـ "أنت تطردينني؟!".

عادة تحويل الإجابات المحسومة إلى تساؤلات دهشة هي عادة درامية بالأساس، لكن الدراما تصلح دائمًا لمواجهة المواقف المستفزة، غير المعتادة:

ـ "لا تفسرها بهذا الشكل.. أنا فقط بحاجة لفرصة للتفكير فيما أفعله".

كان صوته يتعالى غيظًا:

ـ "ألهذا أتيتِ بيتي؟ لتحصلي على فرصتك للتفكير؟".

لم أجد بدًّا وقتها من قدر من المصارحة:

ـ "لقد أتيت بيتك لفكرة طرأت في رأسي فجأة.. لكني الآن أجدني بحاجة لإعادة النظر".

هل حقًّا هذا ما حدث؟ أم أني أكذب عليه للخلاص من جمود الموقف؟!

ـ "أية فكرة؟".

سألني، فأجبته:

ـ "دعني أعيد النظر أولًا.. وسأخبرك إن قررت تنفيذها".

***

الفتى يحكي

- "أنت تصدقني؛ أليس كذلك؟".

سألني وفي عينيه التماعة من رجاء، فابتسمت مطمئنًا، وأجبته:

- "أكثر مما تتخيل.. فما ترويه يفوق أجمل الأحلام جمالًا".

شجرة الحكمة؛ هذا هو المكان حيث يجب أن أذهب.. هذا هو سر الوجود ربما. إجابة لغز الجسد النافر للأرض وللعالم.. شجرة الحكمة، حيث قد أجد جحر الأرنب الذي يخبئ بوابة أرض العجائب.

- "السؤال الأهم هو: هل أنت راغب في مساعدتي؟".

لحظتها اصطفيته ليكون أول من أطلعه على سرِّي اختيارًا:

- "بل أنا ربما أفوقك رغبة لبلوغها".

- "لماذا؟".

لم أجبه سوى بالفعل الصامت؛ انحنيت أحل رباط حذائي.. خلعت الفردتين، ونزعت بعض الأثقال من بنطالي، فحلقت عاليًا في فضاء الحجرة حتى لامست السقف.

في يوم ما، صحوت من النوم لأجدني بلا وزن. ليل بنهاية معتادة، دلفت إلى فراشي مبكرًا، ليسلمني إلى صباح مجنون، صحوت فيه لأجد جسدي يلاصق السقف، ولولاه - السقف الواطئ - لحلقت ربما في الفضاء إلى ما لا نهاية.. ناديت أمي، فصرخت كما يليق بأم مفجوعة في ابنها البكري. بعد ثوان هدأت، وبدأت تستطعم دهشتها.. هي لا تفهم سوى وجيعة الموت أو الهجر، ربما المرض كذلك يوجع أحيانًا، ولكن ماذا عن وجع الابن الطائر؟ هل يمكن أن تعقد جلسات مواساة مع جاراتها وشقيقاتها، لتحكي لهم باكية كيف دخلت حجرتي لتجدني أحط على السقف مثل البرص؟! لهذا عرفت مبكرًا أن الأم لا تصلح كداعم في مسألة غامضة

كتلك.. حلفتها ألا تخبر أحدًا، وقررت تولي الأمر بنفسي.

وقتها، كنت في عامي الأخير من الدراسة الجامعية.. كنت أتحاشاهم، أمقتهم، أخاف حتى أن أطأ ظلالهم في الشوارع، لهذا لم أجد في التحليق بعيدًا عنهم ما يسوء؛ بالعكس، ربما هو تحقق إلهي لأمنية سرية، تمنيتها يومًا ثم نسيتها. لكنها كراهة الاختلاف هي ما دفعتني للتفكير في كيفية مواجهتهم على هذه الحال.. هم يخافون الجديد مخافة الموت، وقد أدفع حياتي ثمنًا لهذا. لذلك لجأت لحيلة الأثقال، والحذاء المعد بكيلوجرامات من المعدن الثقيل، ليبقيني راسخًا على أرضهم. لكن جر الحذائين الثقيلين لم يكن سهلًا، فأطلقت فيما ورائي كذبة عن حادث السير الذي تعرضت له، فأكسبني ـ على كبر ـ هذا العرج الواضح.

اضطررت في البدايات للتعامل بصبر مع لزوجة تعاطفهم، حتى مرت الكذبة بسلام، وآمنت صمت أمي، فلا تفضحني؛ هي على كل حال مثلهم، تعتبر هذا الاختلاف دربًا من عار ألمَّ بأسرتنا، فكيف تحدث به

مخلوقًا، فاستقرت حياتي، وبدأت التعامل مع حالتي بشكل أكثر إيجابية، فاجتهدت في تمرين بدني، حتى حولت هذا الطفو العشوائي في الهواء إلى قدرة منظمة وموجهة على الطفو البطئ في الهواء، مع قابلية للارتفاع والهبوط ذاتية، دون أن أتمكن من ملامسة الأرض، فكلما اقتربت منها حتى حدود التلامس، نبذتني بعيدًا، كما ينبذ المغناطيس شبيهه.

لن أنكر أني حاولت البحث عن أسباب مفهومة لحالتي. قرأت في تاريخ الإنسان، وفي ألغاز الكون، اتبعت كل الكتابات التي تغوص في العمق السحيق للنفس البشرية، فما وجدت شيئًا. حتى الأديان، لم يبلغني الإبحار فيها أي شواطئ معدة للفهم. رغم هذا، بقيت حتى هذه اللحظة رافضًا طلب المساعدة من مخلوق، فأي من أحدثه عن حالتي لن يكون أكثر من واحد آخر منهم؛ أصحاب العقول القاصرة.. هل سيفهم؟ هل سيتعاطف؟ أم أن الأمر لن يعني له أكثر من فقرة مسلية في سيرك، مع احتمالات الربح المادي من الاستغلال الإعلامي لحالتي.. حتى هذه اللحظة التي



قررت فيها أن أمنح سري الأكبر لهذا العجوز، المتحول من زمن إلى زمن. هذا الرجل الذي نام ـ مثلي ـ على حال، ليصحو على آخر.. ليس عن ثقة فيه، وإنما لاحتياج إليه؛ فهو الطريق إلى الكيان الوحيد الذي قد أجد عنده المساعدة المرجوة؛ شجرة الحكمة.

***

ـ "إذًا هي حقيقة؟ هناك رجال طائرون؟!".

كان مبهورًا، منقطع الأنفاس، فخشيت ألا يحتمل القلب المتقدم في العمر، فلامست كتفه مهدئًا:

ـ "أنا لا أعرف سواي على هذه الحالة".

ابتسم بنزق طفل:

ـ "... وموظف الأرشيف كذلك".

نهض من مكانه، متحمسًا حتى بدا، وكأنما فقد السيطرة على حركته.. يتنقل من خطوة إلى خطوة بمسارات مترددة:

ـ "أنت تطير حقًّا.. إذًا هو يطير حقًّا.. إذًا الحكاية حقيقية.. الأرشيف موجود".

ـ "وهل كان الشك يساورك بعد؟".

حاول أن يهدأ، ويحافظ على تماسكه:

ـ "ليس شكًّا.. ولكن يقين العلم شيء.. ويقين الرؤية شيء آخر".

قالها، وانفجر ضاحكًا ضحكة سعادة طويلة عالية، فوجدتني أتساءل كيف ذات يوم كرهته؟ كيف ربطت بين تلك البراءة، وبشاعة وجه النظام؟ ما كان السؤال الذي أردت سؤاله يوم ندوة الجامعة؟!

ـ "أنت معي إذًا.. أنت سلاح فتاك".

بدا وكأنما كل محاولاته لممارسة السيطرة العصبية قد فشلت، فعاد إلى اندفاع الحركة والقول:

ـ "معًا سنجدها.. وسأعرف من أنا حقًّا".

ـ "وأنا سأعرف علاجًا لحالتي".

لا أعرف لماذا نطقتها، كنت مندفعًا على إثر فرحته، فلم أراقب ألفاظي.. ولكن هل هذا حقًّا ما أريده؛ العلاج؟ كنت أظنني سعيدًا بتلك الحالة.. أهذا ما أريده، أن أصبح مثلهم؟..

ـ "عن أي علاج تتحدث؟! أنت الرجل الطائر.. هذه قوة لا يتنازل عنها سوى مجنون".

نظرت إليه عاجزًا عن الرد، ربما أنا ـ بقدر ما ـ مجنون.. عندها فُتح الباب، ودخل علي. أعرف أنه أمر العجوز قبل مغادرته بالرحيل.. ربما لم يتوقع عند عودته أن يجده ما يزال في البيت.. ربما هذا هو سبب الذهول المرسوم على وجهه، أو ربما لأنه لم يتوقع أن يجد في صالة بيته رجلًا طائرًا.

***

الولد يحكي

هي لحظة لا تأتي كثيرًا، ربما مرة واحدة في العمر، وربما حتى لا تأتي للكثيرين؛ لحظة أن تكتشف أن صديقك قادر على الطيران.. والأغرب، أن تأتي هذه اللحظة في حضرة رجل، كان يحاول منذ دقائق إقناعي بأن هناك رجلًا قادرًا على الطيران! لهذا كان عقلي يدور وأنا جالس أمامهما على أريكة بيتي، وكأنني أنا الغريب..

ـ "أرأيت؟ أنت لا تعرف كل شيء بعد في هذه الدنيا، فلا تقطع برفض شيء دون اختبار".

بالطبع هي فرصة ذهبية لعجوز مخرف لأن يمطرني بالمواعظ.. كان سعيدًا، فخورًا، متباهيًا، وكأنما هو الذي يطير، وليس ذلك الشاب الذي لم يتعرفه، سوى منذ ساعتين أو ما يزيد قليلًا..

ـ "كيف هذا؟".

قلتها عندما وجدت ضرورة لأن أنطق، وجهت النظرات إلى حمزة، فخفض عينيه، وكأنما هو محرج مني لذنب فعله..

- "أنا نفسي لا أعرف.. وربما تخبرني الشجرة".

كان قد ارتدى حذاءه وأثقاله، وجلس أمامي محاولًا إقناعي بما ينتويانه..

- "تعال معنا".

لم أتسرع في الإجابة.. بشكل ما، أشعر أني أواجه عقلين أكثر ذكاء مني، ولا أريد لهما الانتصار عليّ، لذلك وجب أن أتأمل خياراتي، وأفكر قبل أن أنطق.. عندما وجدتها قلت:

- "ليست بي حاجة إلى الشجرة.. لكل منكما أسبابه للرحيل خلفها.. فما أسبابي؟".

كان منطقي قويًا كما بدا لي، فاكتفيا بتبادل نظرة دون رد، سوى قول مائع من العجوز:

ـ "هو شأنك.. أنت من تحدد حاجتك".

ابتسمت فخورًا بحسن تفكيري:

ـ "كما قلت.. لا حاجة بي لها".

نهضت من مكاني مقررًا تزيين القول الحسن بقدر من الأداء الدرامي..

ـ "وفقكما اللّٰه".

تحركت نحو حجرتي، ثم توقفت كما تقتضي التأثيرات الدرامية، والتفت إلى العجوز:

ـ "بإمكانك أن تبقى حتى وقت رحيلكما".

بلا أي تأثر، أو حتى رغبة لمجاراة أدائي، قال:

ـ "دعني أبقى الليلة فقط.. الليلة سأحصل على مبتغاي من عالم الأحلام.. ثم نرحل غدًا".

ـ "كما شئت".

قلتها ودخلت حجرتي.. نمت، ثم صحوت.. قضينا ليلة عادية. حمزة عاد إلى بيته، وبقي العجوز في صحبتي. لم نتحدث كثيرًا.. تعشينا، ثم دخل إلى حجرة أبي لينام. ما حدث بعدها بسيطًا،
ولا يروى بالكثير من الكلمات.

في اليوم التالي رحلا.. حمزة قدم طلب إجازة من المدرسة، ثم حضر عند الغروب، وأخذ العجوز ومضيا، ولم يتركا لي سوى قدر من الخواء، وشيء بسيط من ندم.. حاولت الاتصال بياسمين لإصلاح ما فسد، ولكنها لم تجب اتصالاتي.

وفي الصباح التالي، جاءوا.. هشموا باب الشقة دون أن يطرقوه، وحملوني معهم إلى مكان أجهله.

***



الرحلة

العجوز يحكي

قطعت الممرات الرسمية الممتدة إلى ما يشبه اللانهائية، ولم أتعب. اجتزت أبوابًا متداخلة دون كلل.. لا أذكر أن الحجرة كانت على هذا البعد، لكن كيف للذاكرة أن تسعفني، بعد كل هذه الأعوام التي تفصلني عن أخر زيارة لي للمكان.. ناهيك عن كون تلك الزيارة الجديدة في عالم يعلو عالمنا الواقعي، والمسافات ليس لها هنا أي منطق؟! لكنني كنت سعيدًا ـ رغم أي متاعب ـ بهذا السعي الطويل؛ فقد كان هنا ـ وعلى غير منطق الحياة ـ لجسدي عنفوان الشباب، وقوة ورشاقة حركة، لا تناسبان ما صار عليه من وهن وتصلب في العالم الواقعي.. كنت مستمتعًا لحظتها باستعادة إحساس الانطلاق، والخلاص من أثقال الجسد المنهك بشيخوخته؛ لهذا تمنيت أن تطول المسافات أكثر.

صفوت بك كان مختبئًا في أعماق بعيدة.. حتى في أحلامه يجيد الاختباء وتأمين وجوده. بعد المزيد من

اختراق الحجرات الرسمية، والممرات المحشودة بحرس لا يعيرونني أي انتباه، بلغت الحجرة المنشودة. تمامًا كما أتذكرها من العالم الواقعي، حجرة مكتب صفوت بك.. هناك فوق الأريكة الجلدية كان جالسًا، وبين قدميه تركع عجوز بدينة، في جلباب بيتي مزين بورود خضراء، تؤدي طقوسًا لإيقاظ فحولته، أو ما بقي منها.. ابتسمت رغمًا عني؛ لم يكن غريبًا أن أكتشف أن الرجل الذي تجاوز السبعين لم تزل تراوده أحلام جنسية.. لكن مظهر شريكته في الحلم كان مثيرًا للسخرية.. أردت أن أسأله: من هذه يا باشا؟ ربما هي جارة قديمة اشتهاها في مراهقته البكر. وربما هي خادمة خاض معها مغامرة هامشية ذات يوم بعيد أو قريب.. المهم أن إبحاري الطويل في عالم الأحلام، علمني أن كل شخص في الحلم هو ظل لآخر في العالم الواقعي.. لكني رغم هذا، لم أسأله بدافع الفضول، وإنما بدافع تكدير صفاء لحظته، ومنعه من بلوغ لذته..

ـ "من هذه؟!"

قلتها ضاحكًا، مشيرًا إلى المرأة، متعمدًا قطع مسار الحلم.. صفوت بك شهق، والمرأة صرخت.. تنافرا، وأبديا خوفًا من هذا المقتحم. المرأة في ابتعادها عن رجلها تحولت إلى شاب ضخم بحلة سوداء.. شاب بدا لي كحارس خاص. وهو ما تأكد لي عندما أخرج مسدسه وأطلق رصاصاته نحوي. لكن - كعادة الرصاص في الحلم - لم يكن له أي تأثير.

ـ "لتأمر كلبك هذا أن يتوقف، ودعنا نتحدث كرجلين".

صفوت بك بقي محتفظًا بقسمات الخوف، وهو يواجهني، أنا صديقه القديم..

ـ "بدر؟! أنت ميت".

اختفى الحارس، فجلست على الأريكة المريحة، مسترخيًا بجوار الرجل المرتعش..

ـ "لست أكثر موتًا منك؟".

كرر صفوت بك، بإصرارغبي، قوله:



ـ "أنت ميت".

ابتسمت مستمتعًا بلعبتي..

ـ "وإن كنت.. فيم يفيدك هذا، طالما أني هنا في حضرتك؟".

ـ "ربما أنت شبح؟!".

ـ "هذا لن ينكر حقيقة وجودي.. فها أنا أمامك".

أجابني صفوت بك، وفي صوته ارتجاف:

ـ "أنا الأقوى يا بدر".

ـ "في هذا العالم لا تجدي موازين القوى".

ـ "أنا الأكبر يا بدر".

ـ "لا تكن هشًّا هكذا.. أنا لا أهددك بشيء".

لم يبد أن كلماتي نجحت في بث أية مشاعر طمأنينة في القلب العجوز، فلم يزل الجسد المتداعي

بمقتضيات العمر ـ والمتماسك بمعجزات الطب الحديث ـ يرتجف..

ـ "ماذا تريد؟".

ـ "معلومة بسيطة.. أين يقع الأرشيف السري؟".

ـ "أي أرشيف؟"

ـ "لا تلاعبني.. الأرشيف الذي يحوي ملفات المواطنين".

في لحظة، تبدلت الملامح، وتمدد الجسد فصار لعملاق، يكاد يفتق جدران الحجرة، هدر العجوز في وجهي:

ـ "خائن.. ستسجن.. وتقتل.. وتحرق رأسك".

لم يخفني تحوله المفاجئ، فهو في وضع، يجعلني أتوقع منه مثل تلك المبادرات الدفاعية اليائسة؛ خاصة وأنه لم تفتني ملاحظة حركة بسيطة من عينيه في لحظة سبقت تحوله المخيف، تحديدًا حين ذكرت في

سؤالي كلمة: الأرشيف.. حركة عين عفوية من صفوت بك، وجهت نظرة خاطفة نحو دولاب ملفات في ركن الحجرة.. فربما هناك يسكن ما جئت لأجله. نهضت نحو الدولاب، فتحت أول الأدراج، فكانت الملفات مكدسة بأعداد تقارب اللانهائية.. أدركني صفوت بك لحظتها، جذبني بيد قوية، ألقت بي في نهاية بعيدة للحجرة، فسقطت متشبعًا بآلام الظهر.

الخطوة التالية لي، ويجب أن يكون هجومي كاسحًا حاسمًا:

ـ "أنا لا أخافك يا صفوت.. أنت مجرد طفل ضعيف".

ـ "ستسجن.. وتقتل.. وتحرق رأسك".

ـ "أنت صدى يا صفوت.. أنت بلا وجود حقيقي.. مجرد كائن بالغ الصغر، متماهٍ في كائن أكبر، لا يعبأ حتى بوجودك".

ـ "ستسجن.. وتقتل.. و.. وتحرق....".



- "أنت لا شيء خارج هذا المكان.. لا شيء دون ملابسك المستوردة بأموالهم.. لا شيء دون صوتهم، الذي يتحدث عبر فمك".

- "ستسجن.. و.. و...".

- "أنت طفل ضعيف يا صفوت.. طفل ضعيف".

انكمش صفوت في أقصى أركان الحجرة التي تمددت لتحتوي انزواءه.. تضاءل جسده وتكور حول نفسه، يمتص إصبعه الأكبر.. نهضت مسرعًا نحو الدرج المفتوح. هذه المرة، لم أجد به سوى ملف واحد، على غلافه كتب: "الأرشيف السري".. فتحته متلهفًا، فكانت ورقة وحيدة بقلبه، وفي صدرها، كان ما تمنيت إيجاده.

***

الولد يحكي

جريان الزمن أكذوبة كبرى.. جريان الزمن أكذوبة كبرى..

اللعنة، ما الذي دهاني؟ لماذا تتردد في عقلي تلك الكلمات بهذه الكثافة والإلحاح؟! هل جننت؟! أيكون هذا هو الجنون؟! وكيف لي أن أعرف؟ هل يمتلك العقل المجنون وعيًا بمفهوم: العقل السوي؛ لكي يعقد مقارنة تمكنه من إدراك موقعه بين العقلين؟ هل يمتلك العقل المجنون حتى القدرة على تداول أفكار كتلك؟!! ربما إذًا لم أجن بعد.. ولكن هذا لا يمنع حقيقة أن جريان الزمن أكذوبة كبرى. يجب أن أتوقف عن قول هذا.. يجب أن أتوقف.. ولكن جريان الزمن بالفعل أكذوبة كبرى.. جريان الزمن أكـ..... توقف الآن!

***

ليلتان في الحبس الانفرادي؛ هذا هو الرقم الذي تمكنت من إحصائه، قبل أن أفقد القدرة على إدراك



الزمن.. لا أعرف كم مر من زمن بعد تلك الليلتين. لقد كنت أفكر منذ فترة وأقول لنفسي: ها هي قد مرت الليلة الثانية في محبسك يا علي.. لا أتذكر كيف نجحت في حساب ذلك الزمن، لكني أتذكر كم كنت واثقًا من أن الليلة الثانية انقضت. ولكن الآن، لا شيء.. أنا حتى لا أعرف متى كان انقضاء تلك الليلة الثانية المزعومة.. ربما كان بالأمس، وربما كان منذ عشرات الأعوام. لا أمتلك المعطيات اللازمة لإجراء تلك العملية الحسابية البسيطة. ولكن ما أنا واثق منه، أن النتيجة أيًّا كانت، لن تدهشني.. لن أندهش إن علمت أن لي هنا ساعتين، أو أن لي هنا قرنين من الزمن؛ فقد أدركت أن جريان الزمن أكذوبة كبرى.. اللعنة، ها أنا قلتها مرة أخرى!!

الحبس الانفرادي مظلم، ورطب، وخانق.. لا أعرف أين أنا، أعرف فقط أني في قبضتهم، ولكني لا أعرف لمحبسي مكانًا محددًا، فقد اقتادوني في تلك الليلة معصوب العينين.. لم يرفعوا عن عيني العصابة إلا في

الزنزانة، فلم أدرك أصلًا أنهم فعلوا إلا بعد زمن، فظلام الزنزانة لا يخالف كثيرًا ظلام العصابة.

حتى الآن لم يحققوا معي، أو يطالبوني بأي شيء.. فقط حفلات ضرب ليلية، وإهانات مستمرة، وطعام قليل، وحرمان من النوم.. وكأنما برنامج معد باحترافية خبير نفسي لتدميري جسديًّا ومعنويًّا، وتهيئتي للاعتراف. تقريبًا هي لغة البرمجة البشرية نفسها التي كان يجيدها أبي.. ربما فقط هو لم يصل معي إلى تلك المستويات الاحترافية المتقدمة، ولهذا أدرك الآن كم كان إنسانًا رحيمًا وودودًا! والحقيقة أن أساليبهم فعالة حقًّا؛ فقد كنت في هذه اللحظة مستعدًّا تمامًا للاعتراف.. فقط لو أخبروني بما يريدوني أن أعترف به؛ سينفلت لساني بكل شيء، لن أهمل معلومة مهما بدت تافهة، سأعترف بما فعلته، وبما لم أفعله، سأعترف بما يرضيهم وكفى، حتى لو قادني الاعتراف للإعدام؛ فهي من اللحظات النورانية، التي تجعلني أدرك ما في الموت من عذوبة وجمال!



لا يميز الزنزانة شيء، سوى تدرج اللون الأسود في درجات
لا نهائية، تلف كل شيء طولًا وعرضًا. فقط في لحظات خاطفة ـ أو ربما هي دقائق طويلة، فكما تعلمون أن جريان الزمن أكذوبة كبرى ـ حين يقتحمون الزنزانة لإقامة حفلة ضرب جديدة، تاركين باب الزنزانة مفتوحًا، ليدخل ضوء الخارج بمقدار ما يسمح لهم؛ لتبين موضع التقاء ضرباتهم بجسدي الممزق، حينها ـ وأنا مدهوس تحت أقدامهم ـ أرى على الجدار أثرًا لرسم قديم بطبشور أبيض، حاول أحدهم ذات يوم محوه، فبقى الرسم كأثر باهت.. رسم لعين واسعة محدقة، كلما رأيته شردت وراء المعنى المقصود، حتى أتناسى آلام ضرباتهم؛ من رسم هذه العين؟ هل هو سجين سابق؟ زميل زنزانة واحدة، تفصلني عنه أعوام، أو ربما أيام؟ ولماذا يرسم سجين عينًا تراقبه؟! لماذا لم يرسم سماء، أو شمسًا، أو أنهارًا تجري؟! لكن مع الوقت، وتوالي فترات تراقص الضوء الشحيح، وأنا مكوم تحت نعالهم، أو ضربات أحزمتهم، بات تأمل هذا الرسم الباهت يسعدني، كلقاء صديق طالت غيبته!

في أزمنة الوحدة الطويلة، حين يغلفني الظلام، أجد الكثير من الوقت لممارسة سباحة الأفكار.. تيارات عشوائية تتقاذفني إلى كل مكان، وعبر كل الاتجاهات. أفكر في والدي.. أهذا ما كان يفعله في عمله؟ هل كان يشعر بسعادة، بعد أن ينتهي من دهس أحدهم بنعله؟ أم أنها فقط لحظات ممارسة مهنية لا تشملها عاطفة، كما قال لبدر؟ ربما كان يشعر بملل أداء واجب ثقيل، يريد الانتهاء منه، للحاق موعد الغداء في منزله.. ربما وهو يصفع ويركل ويجلد ويحرق، كان يفكر في العلاوة المنتظرة، أو منحة عيد العمال؟ ويحسب الزيادة التي ستطال راتبه! ربما كان يفكر في طريق العودة لبيته، ويحمل هم ازدحام المواصلات!

ربما لم يكن وحشًا بشكل كامل.. هو فقط عمله. حتى ما كان يفعله معي ومع أمي، وهو لا يختلف كثيرًا عما كان يفعله هنا؛ ألاعيب التدمير النفسي نفسها، وقتل الإنسانية، التي تجعل الشخص قابلًا للانقياد. ربما ما كان يفعل هذا إلا لأنه كان موظفًا مجتهدًا، يأخذ عمله معه إلى البيت! أضحكني هذا الخاطر للحظة، وفي

اللحظة التالية ذهبت في النوم.. كانت لحظة نادرة يتمكن فيها العقل من تخطي الخوف وأوجاع البدن، ورائحة البول والبراز التي تحرق أنفي، ويذهب في نوم عميق مريح، نوم بأحلام هادئة.. ياسمين كانت هناك، تشاركني فراش أبي. جسدي كان مسترخيًا، وروحي في حالة نقاء.. ياسمين كانت تداعب خدي وتهمس في أذني:

ـ "لا تخبرهم بشيء".

ـ "أنا لا أعرف شيئًا".

ـ "لا تخبرهم بشيء".

ـ "أنا لا أعرف شيئًا".

ـ "لا تخبرهم بشيء".

إصرارها على تكرار ما لا أفهمه صدَّر لي توترًا، فتململت محطمًا راحة الاسترخاء.. كدت أرفع جسدي، لولا أن ربتت أمي على كتفي، وقالت:

ـ "عليك أن تخافهم يا ولدي.. يجب أن تخاف".

انسلخت من سطوة ياسمين، وألقيت رأسي على صدر أمي..

ـ "ماذا يريدون مني؟".

ياسمين كانت لم تزل على إصرارها..

ـ "لا تخبرهم بشيء".

وأمي تمسح رأسي بكف حانية، وتهدئني..

ـ "يجب أن تخاف.. نجاتك في الخوف يا ولدي".

في لحظة تململ، انفلت البصر نحو نهاية الحجرة، فرأيت بدر واقفًا في الظلام مراقبًا.. أصابني خوف، اعتدلت جالسًا، فاختفت الأم والحبيبة..

ـ "أنت حقيقي".

ـ "لا شيء حقيقي هنا".

ـ "أنت تراقب أحلامي!".

ـ "إدراكك أنك تحلم هو دليل اضطراب.. عقلك يقظ رغم النوم.. ربما تصحو بصداع في رأسك".

ـ "أنت الصداع في رأسي".

تقدم بدر، واتخذ من طرف الفراش مجلسًا..

ـ "أنا هنا لأجلك.. جيرانك قالوا إنهم اعتقلوك.. فأين أنت؟".

مع كل كلمة نطقها، كنت أزداد ارتباكًا، وتزداد جدران الحجرة ضيقًا، حتى كادت تخنقنا معًا..

ـ "أين أنت يا علي؟".

حجرة والدي صارت نسخة من زنزانتي، نسخة معدلة، تحوي نافذة عالية ترسل ضوء الشمس..

ـ "أنا لا أعرف".

ـ "ماذا يريدون منك؟".



- "أنا لا أعرف".

بكيت لحظتها، فربت بدر كتفي، فلم أستكن للمسته، وإنما ازددت توترًا.. أين أنت يا بدر من الأم والحبيبة؟ ولماذا تظن أني بحاجة للمسة منك؟ أليس هذا غرورًا يا بدر؟

- "لا تقلق.. سأجد طريقة لإخراجك من هنا.. فقط تشجع".

رفع بدر يده نحو النافذة مدعمًا القول بالإشارة:

- "انظر إلى هذه النافذة.. ربما تكون هي خلاصك.. تمسك بوجودها.. احلم بها كل يوم حتى أخرجك".

رأسي اهتزت معلنة الموافقة، رغم أني لم أفهم ما المطلوب مني! أو ربما فهمت، ولكني لم أعرف بعد أني فهمت! هل هناك أي منطق في هذه الأفكار؟!!

في اللحظة التالية، كنت في زنزانتي حقًّا، أتأمل وجوه السجانين.. لم أدرك أني استيقظت من نومي، إلا حين

رفعت عيني لأعلى فلم أجد النافذة.. السجانون اقتادوني إلى الخارج. كان خروجي الأول منذ ألقوني في محبسي. كنت فاقدًا القدرة على السير بشكل مؤقت، لكنهم لم يمهلوني، فجروني جرًّا عبر ممرات كابية الجدران.. النور كاد يحرق عيني، فأغمضتهما مستسلمًا لانزلاق جسدي العنيف وراءهم على الأرض الخشنة. أدخلوني حجرة واسعة، مضاءة بشكل ملائم لاحتواء البشر.

تركوني واقفًا. رغم المقعد القريب، ورغم تفكك الأوصال، وصرخات العضلات المتيبسة، إلا أني لم أجرؤ على الجلوس، طالما لم يأمروني به.. أمامي رجلان، بديا لعيني ـ شبه المقفلتين ـ كتوءمين، حتى حلتيهما الأنيقتين بديتا باللون ذاته والقياس ذاته. أحدهما نهض واقترب مني.. ملامحه كانت مألوفة، أكاد أقسم أني رأيته من قبل، لكن عقلي لم يكن على درجة من الصفاء، تسمح له بممارسة الاستدعاءات. انتظرت أن يتحدث، يعرفني بنفسه، ربما إن ذكر الاسم أو الصفة تذكرته، ولكنه لم يتحدث باللسان، وإنما

بصفعة قوية. لا أفهم لماذا يظنون أنهم بحاجة لمزيد من الضرب! فأنا مهيأ تمامًا بالفعل لأي غرض يبغونه.. الرجل بعد الصفعة نطق:

- "أين هي؟".

لم أفهم عمن يدور السؤال، لكني رغم هذا كنت سعيدًا لأن أحدهم وجه إلي - أخيرًا - سؤالًا. حتى شعرت للحظة برغبة في احتضانه، والبكاء بين ذراعيه! أنا حقًّا لا أفهم السؤال، ولكني واثق من أني سأجيب بما يريحه ويطرب أذنيه أيًّا كان..

- "من هي؟".

الصفعة الثانية جعلتني أدرك حقيقة مهمة، وهي أنني غير مسموح لي بتوجيه الأسئلة.. ورغم هذا أجابني الرجل:

- "أين ياسمين؟".

لحظتها تذكرت.. تذكرت الوجه المنتفخ عزًّا، والصوت المبحوح لطول ما ارتفع دفاعًا عن الأسياد..

- "أنا أعرفك.. أنت والدها".

صفعة أخرى كانت كافية أن أدرك حقيقة أخرى أكثر أهمية، وهي أنني غير مسموح لي بالنطق سوى بإجابة التساؤلات.. الآن لا مجال لألاعيب، لا مجال لخجل أو لتجميل الحقائق.. الأوراق تم كشفها، وليس عليّ سوى أن أبوح بما أعرفه.. ربما فقط أنا أطلت الوقوف صامتًا، فإنهاك العقل ربما يجعل الأفكار تقطع مسافات أطول وبسرعات أبطأ، وهو ما يؤخر تشكل الكلمات على اللسان! ولهذا كانت الصفعة الأخيرة التي أسقطتني أرضًا، فارتاح الجسد للسقوط.. تمددت على ظهري، ونظرت للعملاق أمامي من الزاوية المنخفضة، فكان مضحكًا أكثر منه مخيفًا.

- "أنا لم أرها منذ أيام.. أخر مرة رأيتها جاءتني البيت.. ثم خرجنا، وتمشينا بسيارتها.. حدثتني عن مخطط تريد تنفيذه..."

قاطعني الأب متعجلًا:

- "أي مخطط؟".

- "لم تخبرني.. قالت إنها ستخبرني فقط إن قررت تنفيذه".

- "ولم ترها منذ حينها؟".

- "لقد طردتني من سيارتها تقريبًا.. لهذا كنت غاضبًا منها.. بعد يوم اتصلت بهاتفها فلم تجب".

على وجه الأب بدا تردد، وكأنما لا يستطيع حسم موقفه من حدود الصدق في كلماتي. الرجل الآخر كان أكثر حسمًا، ربما بحكم اعتياد مهني على التعامل مع مواقف الاستجواب. نهض الرجل عن مقعده وتقدم منا.. انحنى وقبض على تلابيبي. جذبني بعنف، أجبرني على الوقوف، وسمعت صوت تمزق موضع ما أعلى ملابسي. توقعت صفعة جديدة، ولكن الرجل كان هادئًا، بطيء الحركة، وكأنما يتعمد هذا..

ـ "أنت تكذب يا علي.. ياسمين اختفت.. وإن كان على وجه الأرض شخص واحد يعرف مكانها، فهو أنت".

هل يفيد إن أقسمت لهم على صدقي؟! كيف يفيد وأنا أدرك الآن حقيقة جديدة، أن الصراحة لا تجدي. حسنًا، لماذا إذًا لا أكذب؟ لماذا لا أخبرهم أنها هربت إلى آخر العالم، أو ارتفعت إلى السماء؟ أو حتى أخبرهم أني قتلتها، يمكن أن أعطيهم تفاصيل جريمة قتل بشعة، لأقل لهم مثلًا أني قطعتها لأشلاء، وأذبتها في الحامض.. فكرة جيدة قد تكون فيها نجاتي من المزيد من الإذلال..

ـ "أقسم أني لا أعرف أكثر مما قلته".

اللعنة، لماذا يتعجل اللسان النطق، قبل أن أنتهي من متابعة مسارات الأفكار كافة؟! ابتسم الرجل هازئًا، وقال مؤكدًا ظنوني:

ـ "القسم عملة غير متداولة في عالمنا.. ألم يخبرك والدك بهذا؟ ألم يعلمك شيئًا عنا؟ لا شيء ينقذك من



أيدينا سوى الحقيقة".

- "لقد أخبرتكما بالحقيقة".

- "ليست هي الحقيقة التي نريد سماعها".

كلما الرجل ازداد هدوءًا، ازداد الأب غضبًا.. دفعني الأب نحو الحائط، صرخ وقد بلغ مصاف المجانين بجدارة:

- "اسمع يا كلب.. أنا احتملت طويلًا مراقبة العلاقة السخيفة بينكما.. ولم أبال طالما أني أسيطر على البنت.. لكن خروجها عن طوعي جريمة عقابها الموت".

شُلَّ العقل تمامًا، ولم أجد شيئًا أفعله أفضل من تكرار بلا أمل للقول ذاته:

- "أنا لا أعرف سوى ما قلته".

الرجل يبعد الأب عني برفق، وهو يقول:

- "اطمئن يا فريد بك.. سيتكلم.. دعنا فقط نهتم به".

ـ "أنا لا أعرف سوى ما قلته".

لم يبال أيهما بحديث اليأس هذا، الرجل قال:

ـ "لقد ترفقنا بك كثيرًا.. لم نزل نحمل ذكرى طيبة لوالدك رحمه الله.. وهذا ما منعنا من المبالغة في إيذائك، فلا تراهن على صبرنا".

ـ "أنا لا أعرف سوى ما قلته".

ـ "لو كان والدك هنا، لعذبك بنفسه".

الكلمات أشعلت غضبي، فقلت:

ـ "سبق وأن فعل".

استدعى الرجل الواقفين ببابه، وأمرهم بإعادتي إلى الزنزانة، على وعد بلقاء قريب.. جروني مرة أخرى في رحلة العودة، رغم أني كنت أفضِّل السير هذه المرة، لكن لم يهتم أحدهم بسؤالي عما أفضله. وهو ما دفعني للتفكير في أن الخدمة سيئة بالفعل في هذا المكان! ألقوني في الزنزانة بعنف معتاد، جلدوني لفترة

بالأحزمة الميري.. قبل أن يغادروا، وتحت تأثير خدر الألم، ربما أكون قلت لهم إن جريان الزمن أكذوبة كبرى! كررتها ثلاث مرات، فكرروا الضرب ثلاث مرات، قبل أن يملوا أو يتعبوا، ثم غادروا وأغلقوا الباب على أصوات السباب تطال أمي وأبي وحتى ديني.. وسط كل هذا كنت أفكر كم كنا طفلين ساذجين ـ ياسمين وأنا ـ حين ظننا أننا نسرق الحب من تحت أنف العالم.. طوال الوقت كنا تحت المراقبة، تحت السيطرة، ربما أحلامنا كانت مراقبة، وحتى الأفكار والمخططات وخيالات العشق. ضحكت حين تخيلت مقدار حماقتنا.. ضحكت أكثر، ثم أكثر، حتى صارت الضحكة قهقهة عالية.. رفعت النظر إلى أعلى، إلى اللاشيء، حيث يسكن المزيد من الظلام، لحظتها فقط فهمت ما قصده بدر بكلامه عن النافذة العالية؛ لحظة هي كانكشاف الحجب، جعلتني أدرك أن عليّ الآن أن أنام وأحلم بزنزانة، لها نافذة تدخل ضوء الشمس.

***



البنت تحكي

عندما قابلت بدر وحمزة في المكان المتفق عليه كمنطلق لرحلتنا، لم أتخيل أن تصل الأمور إلى هذا الحد. الأمر بسيط ـ أو هذا ما توقعته ـ سنأخذ سيارتي في رحلة لا أعرف إلى متى ستطول، ولكنها رحلة مثل أية رحلة أخرى، حتى أني لم أحمل معي كل متعلقاتي وملابسي، وتركت معظمها في شقة صديقتي. لكن الأمر أخذ مساره المعقد، حين جرى على لساني تساؤل لم أقصده، أو هكذا ظننت:

ـ "أين علي؟".

أجابوني أن علي لن يصحبنا في رحلتنا. أمر بسيط، وعلى قدر التوقعات، فهو سبق وأعلن بوضوح عدم قناعته بما ننتويه، كذلك ما صار بيننا في اللقاء الأخير يدعم منطقية قراره.. لكن أي منطق عقلاني يسكن وراء قراري المفاجئ الذي ألقيته في وجوههم..

ـ "أنا لن أرحل من دونه. دعونا نعد لإقناعه".



رغم دهشتهما لم يحاولا إثنائي.. وافقا على الأمر ببساطة، حتى ظننت أنهما يسايرانني كطفلة عنيدة! لكنني أكاد أجزم أنهما إن أبديا أقل قدر من الاعتراض، ما كنت حينها لأتمسك بالأمر طويلًا. فما أعلنته أمامهما، كان مخيفًا لي بقدر ما كان مدهشًا لهما. فأنا ما عدت أفهم نفسي لدرجة الرعب! إن كان علي له تلك المكانة المهمة عندي، فلماذا تجاهلت اتصالاته بالأمس؟! لماذا لم أجبه، وأخبره أني نادمة عما فعلته معه؟! لحظتها فكرت، هل بدر وحمزة أطاعا رغبتي المفاجئة؛ لأنهما يشعران بتذبذبي؟ ربما هما يعاملانني كمجنونة، وليس كطفلة!

عندما وصلنا إلى حيث يسكن علي، تركنا حمزة في السيارة مقترحًا أن يذهب وحيدًا لإقناعه.. وعندما عاد، كان يحمل معه النبأ المخيف، لقد ألقي القبض على عليّ صباح اليوم.

***



رغم دهشتهما.. لكن بدر لم يعدم الحيلة.. رغم طول العمر، والسنوات التي قضاها في معزل عن العالم، كان لم يزل نشط الذهن، قادرًا على تجميع التفاصيل بسرعة، ووضع الخطط، بل وتنفيذها كذلك.. أخبرنا أن الأمر ربما يكون له علاقة باختفائي منذ يومين، وربما كان له علاقة بظهوره المفاجئ بعد تلك الأعوام، فربما كنا مراقبين دون أن ندري، أو ربما كانت هناك مراقبة ما على حلم صفوت بك، كشفت لهم اقتحام بدر لحلم الرجل.. لكن أيًّا كان السبب، فهو يهدد رحلتنا بالتأكيد، لذلك يجب أن نبدأها فورًا. ارتبكنا لكلماته وفقدنا القدرة على تدبر الأمور؛ فلا أنا أو حمزة ظننا أن الأمر يحمل في طياته تلك التعقيدات، وتلك الخطورة.. أقصى خطر كنت لأتصوره، هو أن يغضب أبي مني، ولكن الأمر أصبح يحمل صبغة تمرد وخروج على السلطة!

رغم هذا تشبثت كطفلة عنيدة بقراري غير المفهوم:

- "أنا لن أرحل وأترك علي.. يجب أن أعرف مصيره أولًا".

اقترحت عليهما أن أعود إلى والدي، فربما كان بإمكانه المساعدة.. لكن "بدر" أوقفني بطرح احتمال أن يكون والدي وراء ما حدث لعلي. أربكتني الكلمات، ربما كان إنقاذ علي في عودتي إذًا.. إلا أن "بدر" كان متشبثًا بالرحلة؛ وبرفيقي الرحلة؛ لذلك أقترح أن نؤجل بدء الرحلة، وأن نختفي قليلا لتدبر أمر علي، وما هو الأنسب فعله.

لحسن حظنا كان بدر يمتلك تلك الخبرة بالاختفاء.. وضع الخطة سريعًا؛ يجب أن نترك السيارة في مكان مهجور. نحن بحاجة إلى المال، وهو أمر بإمكاني توفيره.. يجب أن أسحب مبلغًا كبيرًا من أكثر من ماكينة سحب أموال، ثم أتخلص من كروت حساباتي. أجرى بدر مكالمة هاتفية لم نسمع تفاصيلها، ولكنه نجح عن طريقها في تأمين شقة صغيرة مفروشة في منطقة شعبية مزدحمة.. استقللنا سيارة أجرة حتى عنوانها، قابلنا صاحب الشقة، نقدناه ثمن إيجار الشقة لأسبوع، فاستقرينا أخيرًا في مخبأنا. كل هذا حدث قبل أن ينتهي اليوم، وكله حدث، وبدر وسطنا يقودنا



كرجل عسكري خبير قوي الشخصية، فلم نملك أمامه أنا أو حمزة اعتراضًا أو تساؤلاً.. حتى في النهاية جلس أمامنا على مقعد يلتقط أنفاسه المقطوعة، ثم قال:

ـ "يجب أن نتحرك بسرعة.. لقد اضطررت أن أكشف عن وجودي لبعض الأشخاص من العالم السفلي؛ لكي أستطيع إيجاد هذه الشقة بتلك السرعة.. ولهذا فوجودي صار مهددًا، وكذلك وجودكم".

أنهى كلماته، دون أن يتطرق إلى أكثر ما يهمني..

ـ "وماذا عن علي؟".

لم يجب بدر بسرعة، بدا غارقًا في التفكير.. تمهل. وتدبر طويلًا، ثم نطق أخيرًا:

ـ "سأحاول تدبر أمره، لكني الآن بحاجة إلى النوم".

***

لكني لم أتوقع أبدًا أن تبلغ خطة بدر هذا الحد من الجنون.. كان ينظر في أعيننا، يبث فيها خطورة وحسم ما سيقوله قبل أن يقوله! ثم قال:

- "بإمكاني إنقاذ علي، لقد اكتشفت الطريقة حين كنت معه في الحلم".

صمتٌّ تشويقًا، التقط بضعة أنفاس ثم تابع:

- "سأسحبه عبر الحلم".

حمزة كان سريع القول..

- "تقصد أنك ستسحب روحه الساكنة في الحلم؟".

تساءلت متتبعة مقدمات الفهم:

- "وكيف ستحول الوجود الروحي إلى وجود مادي؟".

حمزة هو من أجاب..

- "الروح والجسد لا ينفصلان إلا بالموت.. لا بقاء للجسد دون الروح.. ولا بقاء للروح دون الجسد".

ابتسم بدر فخرًا وهو يتأمل وجه حمزة، كما ينظر الأستاذ إلى طالبه النجيب:

- "بالضبط.. لكننا لا نتحدث هنا عن الروح، وإنما عن الوعي.. الوعي والجسد متصلان.. إن حصلنا على أحدهما، نحصل على الآخر".

سألت عن عسر في ابتلاع الفكرة:

- "ألا يمكن لهذا أن يقتله؟".

فأبى بدر أن يهدئ من روعي قائلًا:

- "نحن نفعل ما لم يفعله أحد من قبل.. وحتى من اكتشف طريقة اقتحام الأحلام، لم يصل خياله إلى تلك الحدود البعيدة.. وبالتالي
لا شيء يضمن لنا النتيجة".

أيده حمزة:

- "هي تجربة علينا خوضها لمصلحته، متحملين العواقب".



لكني بقيت على عهد الخوف.. ربما هو شعوري النامي بالذنب، وربما لأني ـ ولمرة أخرى ـ أكتشف أني لم أفهم ذاتي بالقدر، الذي كنت أظنه؛ فربما أنا ببساطة أحب عليّ حقًّا!

ـ "ولكن كيف نخاطر بحياة شخص دون موافقته؟".

ـ "أؤكد لك موافقته.. فحتى في الموت ـ لا قدر اللّٰه ـ نجاة مما يعانيه".

كامل أخير ـ ودون أن أفسح لنفسي مجالًا للتأكد من صدق عزمي على تنفيذ ما أقترحه ـ قلت:

ـ "ربما الحل الأبسط هو عودتي.. أن أعلن لهم ألا ذنب له في اختفائي".

قال بدر:

ـ "وهل أنت واثقة أن لاختفائك دخلًا بما يعانيه علي؟".

أكمل حمزة:

- "هو فقط افتراض مطروح. فربما كان ظهور بدر هو السبب".

فأكمل بدر:

- "وإن كان اختفاؤك هو السبب.. فهذا يعني أن أباك يعلم بعلاقتك بعلي".

فأكمل حمزة:

- "وهذا لا يضمن أن تشفي عودتك من غليل أبيك، فيدع الشاب الذي عصته ابنته لأجله سالمًا".

اللعنة، لقد فكرا في كل شيء. هما يملكان العقل، وأنا لا أملك سوى قلب يرجف خوفًا، ولا أعرف حتى سببًا لهذا؛ لذلك لم أنطق، وهما اعتبرا صمتي كإعلان الإجماع على الموافقة. قال حمزة:

- "كيف سنفعلها؟".

بدا بدر واثقًا، وهو يقول ببساطة من يتحدث عما اعتاده:



- "الأمر منوط بعلي ذاته... يجب أن يخلق حلم النافذة كل يوم، حتى يصير واقعًا بديلًا".

***



الولد يحكي

أجلس في ركن زنزانتي متكورًا على نفسي.. اعتدت في الأيام ـ أو الساعات أو الدقائق ـ الماضية أن أسلي نفسي باسترجاع الأغاني التي أحبها، لكني أكتشف الآن أني ما عدت أتذكر أية أغانٍ. كنت مصرًّا على بذل جهد التذكر، دون أن ألمس أية جدوى لمحاولاتي المتكررة. عقلي لم تعد به سوى فكرة واحدة تغلفه، وتسد مسامه، وتمنع جريان شراراته الكهربائية؛ وهي ـ كما تعلمون ـ أن جريان الزمن أكذوبة كبرى!

في محاولة الهرب من لزوجة الفكرة، أخذت أتأمل العين المحدقة وهي تتأملني. كانت تتسع وتنغلق، وتدور في كل اتجاه، وكأنما تبحث عن شيء ضائع. كانت مزعجة أكثر من فكرتي اللحوح عن الزمن. مددت يدي أريد أن أغلقها، لعلها ترتاح قليلًا. يدي تعلقت في الهواء، ولم تكمل تمددها، حين انشغل عقلي بتساؤل: كيف أرى العين بهذا الوضوح في ظلام الزنزانة؟ كان ضوءٌ باهت يسقط عليها.. رفعت بصري



فأشرق في عيني الضوء من نافذة الزنزانة، فأدركت أني نمت دون أن أشعر.

ليس من السهل أن يميز العقل بين الواقع والحلم، فهذا يزيد مرارة الواقع، ويفقد الحلم جدواه، ويحوله إلى ملل خالص.. لكن إن اتبعت إدراكي لما كان يقصده بدر بحديثه عن النافذة، فهذا يعني أن تلك القدرة على التمييز قد تنقذني.. كنت أتأمل الضوء العابر للنافذة، حين لاحظت آلاف الكيانات السوداء الصغيرة غير محددة المعالم، تنسال منها فوق الجدران تسعى نحوي. نهضت واقفًا وأنا أصرخ. كدت أحمل عقلي على الصحو، لولا ذلك الكيان النوراني الذي عبر النافذة طائرًا، وحلق في فضاء زنزانتي، لتتراجع الكيانات السوداء عبر النافذة كما أتت. حط الكيان النوراني على الأرض فخفتت أنواره، وتمكنت من تمييز ملامحه..

- "حمزة؟!".

ابتسم حمزة:

- "آن الأوان يا علي، فلا تتأخر".

- "علمني كيف تطير".

- "أنا هنا لأجلك يا علي، فلا تتأخر".

تقدمت نحوه بخطوات متباطئة تعبًا، فمد حمزة يده يقرب المسافات، فاستبقت يدي جسدي تسعى نحو يد حمزة، حتى تعانقتا، فارتفع حمزة في الهواء، وتبعته مذهولًا مستمتعًا..

- "أبقِ النافذة مفتوحة يا علي".

ارتفعنا، حتى بلغنا النافذة..

- "أبق النافذة مفتوحة يا علي".

- "وهل يغلق الحبيس على نفسه أخر باب للأمل؟!".

وكأنما لم يسمعني، ردد:

- "أبقِ النافذة مفتوحة يا علي".



طار حمزة أفقيًا فعبر النافذة، جذبني بجهد. وكانت العين المحدقة تجذب بصري بيسر، ليتعلق بها وكأنما يودعها.. النافذة كانت تضيق، وتعتصر خصري وروحي، وحمزة يصرخ من الجانب الآخر:

- "أبق النافذة مفتوحة يا علي".

حمزة كان يجذب، وأنا كنت أدفع جسدي، والنافذة كانت تضيق؛ كل يؤدي دوره في تناغم..

- "لا تنظر إلى العين المحدقة يا علي. دعها وارحل".

أغمضت عيني، جسدي استرخى، فلم يتوقف حمزة عن الجذب..

- "الأمر صعب يا علي.. فلا تستسلم".

فتحت عيني، نظرت إلى صديقي وابتسمت:

- "إنه ميلاد جديد يا حمزة.. ليس أسهل ولا أصعب من هذا".

عندها اتسعت النافذة بمقدار أكسب جذبات حمزة الجدوى، فانسل جسدي، وسقطت فوق صاحبي. نهضنا، فكان ما يحيط بنا صحراء رمادية الهواء والرمال.. الريح يهب، فيزعزع حتى استقرارنا فوق الأرض، وحمزة يصرخ:

- "يجب أن نجتاز سرداب الألوان السبعة.. أغمض عينيك يا علي والتصق بي.. دع خيالي يقود.. فقط لا تفلتني، فأفقدك إلى الأبد في السرداب".

تمسكت بقوة بصاحبي وأغمضت عيني.. في ظلام الغياب، رأيت العين المحدقة، ضخمة، تحلق فوق رأسي كقمر عال، فصرخت، ثم فتحت عيني، فكان وجه ياسمين يلاقيني بابتسامة فرحة:

- "صح النوم أيها الكسول".

***

خرج بدر من باب الحمام مستعرضًا مظهره الجديد أمامنا بابتسامة فخر.. شعره استعاد لون الصبغات،

تجاعيد وجهه لم تزل تختفي واحدة تلو الأخرى، وجسده ازداد انتصابًا، وكأنما فقد الأعوام الإضافية التي اكتسبها في محبسه الاختياري.. كان لم يزل عجوزًا، وإنما بحال أفضل بكثير.

ـ "ما رأيكم؟"

بصراحة مقيتة أجابه حمزة:

ـ "كنت أفضل الشعر الأبيض".

بدا لوهلة الضيق على وجه بدر.. أو ربما هو تعبير عن الصدمة، وكأنما لم يتوقع ردًّا كهذا. لكنه وأد التعبير الجامح بسرعة بابتسامة، وهو يقول:

ـ "التجديد مطلوب".

لم أعط الموقف الكثير من تركيزي، فلم تزل في رأسي مساحات منشغلة بما هو أهم..

ـ "لماذا أنقذتموني؟".

كنت لم أزل ممددًا على الفراش، أتلقى العناية من ياسمين؛ تطعمني وتطبب جروحي وروحي..

- "أنت واحد منا".

قالها حمزة.

- ".. لكني رفضت مسبقًا الذهاب في رحلتكم".

بدر أشار إلى ياسمين:

- "هي من رفضت الرحيل دونك.. فعندما عدنا لإقناعك، عرفنا ما جرى لك".

نظرت إلى وجه ياسمين، يعلوه الاحمرار جراء شعور بالذنب..

- "ولماذا تذهبين معهم؟! أهذا هو المخطط الذي رفضت مصارحتي به؟"

- "بل هو المخطط الذي جعلني أتناسى المخطط، الذي رفضت مصارحتك به!".



وكأن هذا ما كان ينقصني؛ دوامة جديدة! دار عقلي حول محوره؛ الكلمات صعبة، والتساؤلات تخنقني وتعجزني عن التواصل أو الفهم.. هل أخبرهم باستنتاجاتي الذكية عن جريان الزمن؟ اللعنة، لماذا لم أزل أذكر هذا الأمر.

ـ "لماذا إذًا؟".

ـ "أريد أن أعرف مصير جودي ونوح.. والشجرة ستدلني".

لحظتها ثرت؛ لا أدري ما دهاني، ولا ما الداعي لكل هذا الانفعال.. وكأن ثمة ما اختنق في روحي وعقلي وصدري طوال ما فات من أيام ـ أو ساعت أو أعوام ـ قد تحرر من قيوده الآن في وجه البنت الجميلة.

ـ "وما شأنك أنت بهم؟! وما شأني أنا؟! أتدرين ما فعلت بي حماقتك؟ أنت ابنة الأكابر المدللة، وعليك دائمًا أن تبقي هكذا".

لحظتها بكت.. ارتبكْتُ لتلك المعجزة، فأنا لم يسبق لي أن رأيتها بهذه الحالة من قبل.. لم يسبق أصلًا أن أبدت ضعفًا، ولو بانكسار عين. كانت تبكي كالأطفال، فارتجف قلبي، ودفع القول عبر فمي بصوت متهدج:

ـ أنا آسف.

تنهنهت قائلة:

ـ "أنت محق.. لا أعرف ما دهاني".

بامتياز العمر المتقدم، وكأب رقيق، احتضنها بدر مربتًا..

ـ "ليس خطأك.. وليس خطأ أيٍّ منا أننا نعيش في عالمهم".

استسلمت الفتاة لحضنه، وسكنت فوق صدره، فشعرت باشتعال مفاجئ في قلبي، ربما هي غيرة.. خاصة مع ملاحظة أن تعبيرات الراحة والسكون على وجه بدر

كانت مماثلة لما على وجه ياسمين، وكأنما هو من يحتاج إلى حضن كهذا وليس هي!

- "تماسكي يا فتاة.. فما نحن مقبلون عليه ليس بالهين.. ولكن في نهايته سنرتاح جميعًا، وسنجد الشفاء لحيرتنا".

قالها بدر مشجعًا، فانسلتت ياسمين من فوق صدره، كفكفت ياسمين دموعها، استدارت إليّ؛ وكتوضيح لموقفها، أو تصحيح لآخر مقولاتها، قالت:

- "أبي يريد تزويجي من ابن نائب الرئيس.. لا أعرف ما دهاني.. لكنني وجدتني لا أحتمل فكرة كتلك، إلى حد الهروب".

حمزة تدخل في الحوار أخيرًا، ربما لإثبات وجوده، الذي طال انزواؤه منذ آخر كلمة نطق بها..

- "الرئيس ليس له نائب".

فتحت ياسمين فمها لترد، لكن بدر قاطع عزمها على الكلام بقول حمل الكثير من الحسم:

- "بلى.. له نائب.. فقط أنتم لا تعرفون به".

أسكتنا جوابه. كلمته التالية كانت كإجابة لحيرة تسعى من عيني حمزة..

- "هكذا تدار الأمور بينهم.. فلا تندهش".

تمدد الصمت لفترة فوق رؤوسنا، حتى قرر بدر الانتقال إلى بند جديد، حين سدد نحوي التساؤل الذي أخشى إجابته..

- "هل أنت معنا أم لا؟".

***



الفتى يحكي

تحلقنا حول بدر على طاولة السفرة، كمجلس حرب مصغر، ننصت لمخططات القائد وتعاليمه.. تحديدًا، ثمة نقطة كانت تشغله، تهدد الرحلة بالفشل المبكر..

ـ "الأمر ما عاد مجرد رحلة نحو الحقيقة.. هروب ياسمين، ثم هروب علي جعلنا ـ بشكل ما ـ عناصر خارجة عن إطار الدولة".

لا أعرف لماذا صدمتني كلمته.. للحظة انسحبت عقلًا وروحًا من الجلسة، وسبحت مفكرًا وراء ذلك التعبير الذي استخدمه؛ لماذا لم يستخدم كلمة "النظام" بدلًا من كلمة "إطار الدولة"! ربما لأنه لم يزل لا يستسيغ فكرة الخروج على النظام، التي طالما اعتبرتها أكبر الكبائر. كانت واحدة من لحظات شك، تنتابني كل فترة حول بدر وحقيقته، وتؤلم ما ظننته سابقًا يقينًا بصلاح الرجل وتجدده.. ولكن هل يمكن فعلًا لمن ذاق نعيمهم، أن ينقلب عليهم بتلك الحدة وذلك الإخلاص؟

ـ "دعنا إذًا هنا، وانطلق في رحلتك مع حمزة".

قالها علي، فعارضته ياسمين بنبرات متوترة:

ـ "أنا لن أتراجع.. ولن أخافهم".

ـ "بالطبع لن تخافيهم، فأنت منهم، أما أنا فأخافهم".

لم يزل علي يصارع ارتباكه وتوتره في نوبات انفعال مفاجئة غير مبررة.. كنت ألتمس له الأعذار، وأتعاطف مع مأساته. ربما إن مررت بتجربته لما بقيت حيًّا لدقيقة واحدة. مسكين يا علي، لا ناقة لك ولا جمل فيما حلَّ بك.. حتى رحلتنا فرضت عليك، وكأنك خلقت بغير إرادة؛ ولكن.. من منا حقًّا يمتلك ذلك الشيء المسمى: إرادة؟!

تدخلت قبل أن يتطور نقاشهما إلى جدل جديد:

ـ "لا داعي لهذا.. اسمع يا علي، إن أردت أن تبقى هنا، فأبق.. هذا حقك تمامًا. ولكن لا تقرر نيابة عن أحد".

صمت علي فطال صمته. بدر اقتحم الصمت:

- "مرة أخرى أسألك.. هل أنت معنا أم لا؟".

حاولت تخفيف الأمر عليه بإيضاح ما قد يكون غاب عن فهمه..

- "نحن لا نحتاجك يا علي.. أنت من تحتاج رفقتنا.. تحتاج الشجرة كما نحتاجها".

صمت علي.. للمرة الثانية يجيب بالصمت عن السؤال ذاته؛ هل هو معنا أم لا؟ لكن الآن، وأمام نظراتنا المترقبة، كان يجب وأن يعلن موقفًا حاسمًا..

- "أنا معكم".

قالها وأطرق إلى الأرض، وكأنما خَجِلٌ هو من قراره.. في حين عاود بدر التخطيط:

- "إن أرادوا الوصول إلى علي وياسمين، فبإمكانهم مراقبة أحلامهما، وهذا قد يعرض كل شيء للخطر.. الإنسان في الغالب يحلم بما يشغل فكره.. فالاحتمال كبير أن تتسلل مخططاتنا إلى أحلامكما" .

ـ "وما الحل؟".

تساءلت ياسمين، فأجابها:

ـ "يجب أن تتعلما قدرًا من التحكم في أحلامكما.. الأمر ليس بالصعب.. حمزة تعلم في يومين فقط كيف يقتحم حلم علي ويخرجه من محبسه".

نظر إلى علي بالتماعة في عينيه، وكأب يمتدح ابنه النابه، قال:

ـ "علي كذلك فعل شيئًا كهذا، حين درب نفسه على الحلم بالنافذة العالية لزنزانته".

أسلوب المديح ربما أثر في نفس علي، فأنا أعلم بأنه لم يعتد سوى التقريع والسخرية، ممن كان يفترض به أن يكون أول مشجعيه.. لذا عاد للتفاعل يقول:

ـ "الأمر وقتها لم يكن صعبًا.. فقد كنت في حال أعانتني على هذا".

ـ "وهو في المطلق ليس صعبًا.. فقط أعيروني تركيزكما.. الوقت عدونا.. ويجب أن نتعامل معه بجدية".

نهض بدر متحمسًا، يمسح المكان بعينيه بحثًا عن شيء ما، ربما يبحث عن غرض يصلح للتدريب. على طاولة قريبة حقيبة مشتروات بلاستيكية سوداء، تحجب ما بداخلها.. مد بدر يده في أعماقها، وأخرج زجاجة بيرة نصف ممتلئة، وضعها أمام عيني علي وياسمين..

ـ "مثلًا هذه الزجاجة".

قالها وهو يعاود جلسته، لكن علي قاطعه؛ قاطع كلماته، كما قاطع حماسته:

ـ "ماذا تفعل هذه الزجاجة هنا؟!".

ياسمين تدخلت..

ـ "أنا اشتريتها".

قال بدر:

- "وأنا طلبت منها. لقد كنت مشتاقًا إليها".

علي لم يعلق، وإن بدا على وجهه جهد ابتلاع الصدمة.. أما أنا فتوقفت عن الاندهاش من هذه التصرفات الجانبية المريبة من بدر. ولكنها لم تزل تؤجج تلك الشرارة الصغير، التي لا تريد أن تتوقف عن الاندلاع في عقلي كل حين؛ شرارة الشك؛ من أنت يا بدر في الحقيقة؟ أي بدر أنت في هذه اللحظة؟

علي - قاطعًا الطريق على تصاعد الموقف - قال:

- "حسنًا.. استمر. آسف للمقاطعة".

عاود بدر حماسته:

- "أتعرفون أنكم إن أطلتم تركيز النظر على تلك الزجاجة لفترة طويلة. ثم أغمضتم أعينكم، فإنكم سترون صورتها الشبحية محلقة في عالم الظلام؟

هزا رأسيهما، فأكمل:



- "الأمر متشابه مع الأحلام.. تركيز عقلك على شيء ما طيلة النهار، ستجعله ينطبع في عقلك كحلم، عندما تغمض عينيك وتنام. لذا عليكما أن تتحكما في هذا التركيز.. عليكما أن تتعلما أولًا كيف تركزا النظر على هذه الزجاجة، دون أن تنطبع صورتها في عقليكما".

حينها نهضت، كنت مررت بذلك التدريب من قبل، وبالتالي وجودي بينهم لا داعي له.. فضلت أن أترك لهم مساحة للتركيز، قلت:

- "سأخرج لأشتري شيئًا لنأكله".

لم يعترض أحد.. كان التدريب قد بدأ فورًا، وأنا أسحب قدميّ - الملتصقتين بالأرض - خلفي إلى الشارع.

***

طوال ما عشته من أعوام، لم أعتد مراقبة الناس.. على العكس، اعتدت تحاشي وجوههم، أجسادهم، اعتدت معانقة الأرض بنظرات هاربة. هذا ما فعلته

طيلة حياتي، وهذا ما فعلته في هذه اللحظة، وأنا أعبر باب البناية إلى ليل الشارع الصاخب المزدحم. لكن رغم هذا، لم أستطع أن أفوت وضوح الشمس في تلك الملاحظة، التي فرضت نفسها على إدراكي؛ شيء ما ليس على ما يرام في الشارع.. ربما هي سيارة الشرطة الواقفة عند أوله.. ربما الرجال الواقفون على أبواب الدكاكين، وبين طاولات المقاهي، يتأملون ما يجري بنظرات زائغة.. ربما أولئك الرجال الواقفون وسط حلقات من ساكني الشارع يسألون عن شيء ما. أولئك الرجال المطلة مقابض المسدسات من نطاقاتهم. هؤلاء رجال شرطة يبحثون عن شيء ما، أو عن شخص ما ربما.. بالتأكيد يبحثون عن شخص، وهذا الشخص قد يكون أنا؛ بل هو بالفعل أنا، وإلا لماذا أشار هذا الرجل نحوي بحماس، بمجرد أن التقت أعيننا، فالتفتت نحوي أنظار الرجال أصحاب المسدسات؟

منذ سنوات تلازمني تلك الأزمة، أزمة التميز الشكلي؛ فكل من يراني لا ينساني، دائمًا أنا ذلك الشاب الأعرج في المكان؛ يسهل وصفي، ويسهل العثورعليّ. كانت

أجزاء من الثانية هي كل الوقت، الذي لدي لكي أجتر تلك الملاحظة الحزينة عن ذاتي، فقد كان تقدم الرجال نحوي سريعًا.. أحدهم لم يستطع صبرًا لبلوغي بيديه، فأسبق صوته، ليبلغني بصيحة:

ـ "قف مكانك...".

ثم ألحقها بسبة لأمي!

لكني لم ـ ولن ـ أتوقف.. عقلي يعمل بسرعة كما اعتاد دائمًا؛ إن كانوا يعلمون مخبأنا بدقة لما توقفوا في الشارع يسألون عن أوصافنا، أو ربما أوصافي أنا بالتحديد. فربما كنت أنا فقط المقصود ولا أحد سواي.. إنها لعنة التميز الشكلي مرة ثانية؛ لذلك لا يجب أن أقع في أيديهم. فإن وقعت الآن فسيقعون جميعًا معي. فربما الآخرون في مأمن طالما أنا حر. لحظتها سيطرت على عقلي فكرة؛ كل التضحيات مقبولة الآن. ترددت في عقلي كثيرًا، وأنا أخلع حذائي، وأرتفع عن الأرض بما مقداره عشرات السنتيمترات، لكنها كانت ملحوظة، وملاحظتها كانت كافية لأن



تصيب المنقضين بشلل وقتي، كان كافيًا لأسحب الأثقال من جيوبي ومن طيات ملابسي، وألقيها تحت أرجلهم، فأحلق عاليًا حتى أختفي بين السحب المنخفضة، تاركًا لمراقبيني صمت الذهول.

***

العجوز يحكي

أنهيت مكالمتي مع حمزة.. تجمدت في مكاني أبحث عن إجابة، وقت أن كان علي وياسمين يروحان ويجيئان مسرعين، يرتبان لمغادرة سريعة لمخبئنا، كما أمرتهما. فجأة توقف العقل عن العمل، وقد بلغ حد النجاح، وأشرق عليه نور الفهم.. حينها نهضت قائلًا:

ـ "لقد كانوا بداخل حلمك يا علي".

توقف علي، ونظراته المستفهمة تتسابق إلى وجهي:

ـ "لقد كانوا يراقبون أحلامك في زنزانتك.. لقد شاهدوا حمزة وهو ينقذك".

بدا على وجه علي جهد مطاردة الحيرة، وهو يقول:

ـ "لكن لم يكن في الحلم سوانا".

هنا كان دوري لألقي بأكثر استنتاجاتي ذكاء:



- "العين المحدقة يا علي. ذلك الرسم على جدار زنزانتك، هو ما كان يراقبك".

لم يبد على وجه علي الانبهار الذي انتظرته، وإنما الصدمة والخوف.. حتى أنه لم ينطق، وعاود ممارسة عمله، وإنما بإيقاع أبطأ، بفعل ضغط الارتباك على كاهليه. في حين خفت وهج إعجابي بذاتي، وأنا أفكر أن مراقبتهم لأحلام علي، تعني أنهم شاهدوني كذلك عندما زرت حلمه.. ليتني لم أفعل. لماذا لم أدرب حمزة مبكرًا على فن اقتحام الأحلام؟ أعترف أني توقعت شيئًا كهذا، ولذلك لم أنفذ بنفسي خطة إنقاذ علي، متعللًا بالصعوبة الذهنية للأمر، والتي تحتاج إلى عقل شاب متقد مثل عقل حمزة! اللعنة عليك يا علي، وعلى فتاتك المدللة.. الآن هم يعلمون أننا معًا، ويعلمون أن حمزة ليس وحده. وبالتأكيد هم يبحثون عنا الآن".

- "ولكن كيف علموا بمكاننا؟".

سؤال بدهي انفلت من عقلي إلى لساني دون ترتيب، فتوقفت مرة أخرى الحركة المتوترة للجسدين

الفتيين، وواجهتني نظراتهما.. نظرات ياسمين تحديدًا سرعان ما واجهت الأرض، هاربة من حمرة خجل اعتلت خديها، وهي تقول:

- "أنا حلمت بالشارع بالأمس.. كنت أركض خلف يمامة زرقاء تحلق فوق شرفات البيوت"..

الآن صار اليقين تامًا.. وهو يقين لا يقل رعبًا عن مرأى حبل المشنقة!

- "إنهم يراقبون أحلامك كذلك".

يجب إذًا أن يكون لهروبنا إيقاع أكثر سرعة..

- "هي مسألة وقت إذًا قبل أن يجدوا تلك الشقة.. يجب أن نرحل فورًا، كما اقترح حمزة".

لم أجد حينها بدًّا من النهوض لمعاونتهما.. لم يعد الجسد بالإنهاك ذاته الذي أبديه.. بت قادرًا على السير وممارسة الأعمال بشكل طبيعي، ولكنني كنت أنتظر ظرفًا قاهرًا يجبرني على هذا، وها قد آتى؟! أنهينا

جمع أشياءنا البسيطة، ثم تحركنا على ضوء الخطة، التي رسمت تفاصيلها مع حمزة في المكالمة الهاتفية، التي دارت بيننا.. تركنا أنوار الشقة مضاءة، والتلفاز يعمل على مستوى صوت عال، قبل أن نغادرها.

بمجرد وقوفنا على رأس درجات سلم البناية، سمعنا الصخب، وضربات الأقدام القاسية للدرجات صعودًا.. نظرت لأسفل فرأيت الجنود يصعدون إلينا.. أمرت رفيقي بالإسراع، فانطلقنا صعودًا إلى سطح البناية.. أنظارنا ارتفعت بحثًا نحو السماء. هناك، كان حمزة محلقًا على مستوى منخفض نسبيًا. كان مرآه غريبًا، برغم اعتيادي فكرة قدرته على الطيران، إلا أن رؤية رجل طائر في الليل، تحت غلاف من غيوم رمادية، لهي رؤية لها مهابتها.

- "كيف ستستعيد قدرتك على ملامسة الأرض؟".

هكذا تساءل علي، فأجابه حمزة بابتسامة:

- "ومن قال إني أحتاجها؟".

- "ستبقى طائرًا؟!".

- "هذا ما خلقت لأجله يا علي.. هذا أنا.. ولن أعاند ذاتي بعد اليوم".

فكرت أن أدلي بدلو في هذا النقاش الفرعي.. فكرة أن يقرر حمزة بهذا الشكل أن يعلن عن اختلافه، أن ينبذ الاعتياد، ويعادي جمود المجتمع، لهي فكرة بالغة الحماقة في رأيي.. لكنني وجدت أنه ما من وقت - أو جدوى - لمصارحته برأيي، طالما أن حماقته تلك لم تزل مفيدة لنا.. لأبق إذًا محافظًا على النظرة العملية للأمور؛ فهي وحدها القادرة على إنقاذنا وإنجاح مهمتنا.. لهذا قلت لحمزة، معيدًا تركيزه على تفاصيل خطتنا:

- "هل أنت واثق من قدرتك على فعلها؟".

- "أعتقد.. لكن ليس لوقت طويل.. حتى لا يأخذني الثقل إلى السقوط أرضًا".

سأله علي:

ـ "ما يهمنا هو المسافة بين البنايتين.. هل أنت قادر على احتمالها؟".

مبتسمًا قال حمزة:

ـ "أكيد".

تقدمت خطوتين نحو الفتى المحلق، وقلت:

ـ "ابدأ بي إذًا".

هل هو موقف فداء يا بدر؟ هل قررت أن تضحي بنفسك في تجربة قدرة حمزة على العبور بحمله بين البنايتين، كما يبدو من الموقف؟ أم أنك فقط تتعجل الهروب والنجاة بنفسك، مهما كان الثمن؟ هل تفهم نفسك يا بدر؟ تعددت هذه المواقف مؤخرًا، وفي كل مرة تفاجئني تساؤلات تهدم سلامي النفسي، وتصالحي مع فكرة "بدر الجديد".. مثلًا عندما احتضنت ياسمين لأهدئ انفعالها، هل فعلتها حقًّا بدافع ما يفرضه عليّ العمر المتقدم من مسئوليات تجاه هؤلاء الصغار؟ أم أنني في مكان ما من روحي، كنت



مستمتعًا خلسة بضم الجسد الشهي بين ذراعي؟ لماذا صبغت شعري؟ لماذا أعاد لي مرأى زجاجات البيرة ـ مصفوفة في ثلاجة العرض لمتجر الخمور القريب ـ حنينًا لذكريات ظننتني نبذتها؟ لماذا يا بدر؟ ما الذي يمزقك بهذا العنف؟

لم تبد على ملامحي أيٌّ من هذه الأفكار ـ أو هذا ما آمله ـ وحمزة يطفو فوق رأسي، ويقبض على كفي الأيمن المرفوع. تجمد حمزة لثوانٍ مستجمعًا قواه، قبل أن ينطلق محلقًا نحو حافة البناية، وأنا أهرول وراءه.. الحافة تقترب، بعدها إما النجاح أو السقوط.. أكانت حماقة مني أن أتعجل الهروب؟! كتمت صرختي، وأنا أتدلى من يد حمزة في الهواء الفاصل بين البنايتين. كان الحمل ثقيلًا، أعجز حمزة عن الحفاظ على مستوى الارتفاع ذاته، لكن البناية المقصودة كانت أقصر، فأصبح الأمر كهبوط بطيء بالمظلة، أكثر منه طيرانًا.. ثانيتين فقط هما ما استغرقته الرحلة عبر الشارع البالغ عرضه العشرة أمتار، لكنها بدت لي كأعوام. حطت قدماي بسلام على

سطح البناية الأخرى.. كنت ألهث وأجاهد عنف ضربات القلب، وكأنما كنت أبذل جهدًا لا يطاق.. في حين انطلق حمزة عائدًا لإتمام مهمته، حتى تجمع ثلاثتنا في موضع الانطلاق، فغادرنا حمزة، على وعد بالبقاء فوق رؤوسنا للمراقبة، والحماية، واستكشاف مسار الهروب.

كان الاتفاق بيننا قد تم على اعتبار لحظة هروبنا الاضطراري تلك، هي لحظة الصفر لبدء الرحلة. الوقت جاوز منتصف الليل، ولا مجال أمامنا لنوم وشيك، كي لا يفتضح المزيد من أمرنا في الأحلام؛ خاصة وأني لم أتم تعاليمي لعلي وياسمين عن كيفية حماية أحلامهما.

هبطنا عبر درج البناية إلى شارع جديد، بدا لأعيننا هادئًا، خاليًا مما يريب.. تحركنا في مسارنا المرسوم سلفًا. أوقفنا سيارة أجرة، وطلبنا من سائقها نقلنا إلى ضاحية على أطراف العاصمة، هي أقرب نقطة لهدفنا الحقيقي، ويمكن أن نتجه إليها دون أن نثير ريبة السائق. بعد قرابة الساعة بلغنا مقصدنا.. رفعت عيني فور الهبوط من السيارة، فلمحت شبحًا أسود يطفو

بخفة تحت بياض السحب الشاحب، بدا لي كملاك حارس في تلك اللحظة، كيان إلهي قادم من عالم أساطير الإغريق، فأدركت أني بدأت أحب هذا الفتى، أو ربما أنا أحب وجوده لتلبية احتياجي له! فأنا ما عدت أفهمني حقًّا، أو ربما صرت أخشى أن أفهمني حقًّا!

كنت أحفظ العنوان كما أحفظ اسمي؛ لذلك قدت مسيرتنا الصغيرة عبر شوارع الضاحية، حتى بلغنا حدود منتهاها.. أجهد أبداننا طول السير، وأجهدت أعصابنا الشوارع الموحشة، الخالية من البشر في هذه الساعة. ولولا اطمئناني لمتابعة حمزة لخطواتنا، لما قطعت كل تلك المسافة، في هذا التوقيت. ربما التعب والخوف كذلك هما ما دفعا عليّ إلى إبداء قدر من التشكك:

- "هل أنت واثق من صحة العنوان؟".

أجبته:

- "بالطبع.. لقد حصلت عليه من رأس صفوت بك شخصيًّا".

واصل علي البوح بما يقلقه:

- "ما حكيته لي عن حلم هذا الرجل ليس بالأمر المريح.. كيف تثق أنه لم يتلاعب بك؟ أو أن ما وجدته في تلك الورقة ليس العنوان الحقيقي؟".

ليس هذا وقت تحمل سخافات الأطفال يا عليّ.. لكنني تماسكت كأب حمول، وشرحت له ما غاب عن إدراكه القاصر:

- "لقد وجهت للرجل سؤالًا مباشرًا عن العنوان، فظهر في الحلم.. العقل الباطن استدعاه، والعقل الباطن لا يكذب. بإمكانك أن تدرب عقلك الباطن على عدم الإفصاح، ولكن من المستحيل أن تدربه على الكذب".

فتح علي فمه، ربما استعدادًا لفاصل من الجدل الطفولي، لكننا في هذه اللحظة رأينا أمامنا الهدف المنشود.. بصوت متهدج إثارة قلت:

ـ "هذه هي الڤيلا.. تمامًا تطابق الأوصاف".

تقدمنا بخطى حذرة.. البناء كان قديمًا، ويبدو غير مسكون، بالظلام المطل من وراء نوافذه وشرفاته المغلقة. والأهم أنه يقبع وحيدًا وسط مساحة شاغرة من أية بنايات.. أقرب منطقة سكنية بدت لأعيننا مجرد أضواء تتلألأ على مسافة بعيدة. لا شيء حول الڤيلا سوى بعض الأسوار، تحيط بأراضٍ خاوية، رفعت عليها لافتة صدئة تؤكد ملكيتها لوزارة الزراعة.. رجفة طارئة تملكتني. الجو كان باردًا، وبالنسبة لسنوات عمري، كان البرد كجليد قطبي.. لكن ليس هذا ارتجاف الصقيع، ربما هي نشوة الانتصار القريب، أو ربما رهبة المنتظر..

ـ "هل أنت واثق من أنها بلا حراسة؟".

تساءلت ياسمين بصوت خافت دون داعٍ، فأجبتها:

ـ "هذا ما أرجوه.. وهذا ما تصفه الأسطورة".

اقتربنا من بوابة الڤيلا؛ تلصصنا عبر أسياخ الحديد، فشاهدنا خفير ليل جالسًا أمام كشك الحراسة يشرب الشاي، كأي خفير ليل في أية ڤيلا بريئة، لا أكثر ولا أقل. أشرت لهم صامتًا أن يتبعوني.. درنا حول سور الڤيلا عبر الأرصفة المقابلة، دون المغامرة بالاقتراب، فلم نجد ما يريب أو يدل على خصوصية فريدة لهذا البناء.. يبدو أن هذا أثار في نفس ياسمين مخاوف مختلفة، عبرت عنها بتساؤل جديد، بالصوت الخافت ذاته دون داعٍ:

ـ "أيعقل أن نكون أخطأنا المكان؟".

اللعنة على حماقات الشباب، وكأن هذا ما ينقصني..

ـ "لا داعي لهذه التساؤلات الآن".

رغم الحدة التي حرصت على رسم الكلمات بها، إلا أن ياسمين لم تتوقف..

ـ "كيف سندخلها إذًا؟".



لماذا يصرون على الضغط على أعصابي حتى مناطق التفجير؟ أنا لا أطيق تلك التساؤلات السخيفة في غير توقيتها.. تذكرني بزوجتي، بالإلحاح ذاته، وبالتساؤلات، والتدخلات غير المطلوبة ذاتها. من قال لها إن رغبتي في جمالها، تجعلني مجبرًا على تحمل قصور تفكيرها وسذاجتها وقلة علمها؟! ولكن.. لماذا أخوض تلك المناطق الآن؟ ركّز يا بدر.. حقًّا، كيف ستدخل إلى الڤيلا؟

رفعت النظر إلى أعلى بتلقائية، وكأنما أنتظر أن يأتيني المدد من السماء. ومدد السماء الآن كان في عقلي متجسدًا بصريًا على شكل شاب يطير، وهو كالعادة لم يتأخر إجابة رجائي الصامت.. رأيته يهبط إلى مستوى السور، يتمسك بالأسياخ الحديدية، تعينه على جذب جسده لأسفل حتى يوازي رؤوسنا..

ـ "بإمكاني الدخول.. هناك باب للسلم مفتوح فوق السطح".

ـ "وماذا عني؟".

قلتها باندفاع، بصوت حمل رجاء اليائس.. فأجابني حمزة:

- "أنا لا أستطيع رفعكم إلى السطح".

هل تلاعبني يا ولد؟ لماذا تتحدث بالجمع؟ أنا أتحدث عني. أنا من أحضرتكم إلى هنا، وأنا أحقكم بالدخول.. لكن في النهاية لن يهزم انفعالي المنطق في كلمات حمزة. هو بالفعل لن يستطيع رفعنا.. عليك أن تجد طريقًا آخر يا بدر.

- "بإمكاني أن أتسلق"..

قلتها باندفاع من وجد حلول الكون السحرية، فواجهتني نظرات دهشة منهم، ربما تحمل خجلًا من مصارحتي بحقيقة سنوات عمري، ووهن الجسد.. لكنني سبقتهم إلى إيضاح الصورة كاملة:

- "سنقسم الجهد بيننا.. بإمكاني بذل بعض من جهد التسلق، وبإمكان حمزة أن يمسك بخصري كنوع من الأمان، لتخفيف سقوطي إن وقعت".



علي قال:

ـ "يمكننا ببساطة أن ننتظر هنا.. وبإمكان حمزة أن يحضر لنا ما نريده من الداخل".

مسرعًا ـ وربما منفعلًا كذلك ـ قلت:

ـ "لن أصل إلى هنا وأعود دون رؤية الأرشيف.. كما أنني لن أغامر بوضع أصعب خطوات خطتي في يد شاب قليل الخبرة".

أعترف أن كلماتي ربما شابها قدر من قلة الحذر.. أنا لم أقصدها بالمعنى المسيء الذي قيلت به. ربما قصدت المعنى المسيء في رأسي، ولكني لم أقصد أن يخرج على لساني! ربما أتحجج بالتقدم في العمر كما يفترض، لكني لا أستطيع، فأنا لا أشعر حقًّا بهذا التقدم.. على العكس، أنا أشعر بأن سنوات العمر تتساقط عني كأوراق الشجر في خريف باهت، منذ أن بدأت تلك الرحلة، حتى أني قريبًا سأقف عاريًا مثل الشجرة، عائدًا إلى عنفوان وقوة وجبروت أعوام



بعيدة مضت.. ربما أعتذر متحججًا بأي كلمات، يمكن أن تضمد الجرح المفترض في روح حمزة، لكن الولد سبقني وأجاد رد الصفعة، حين قال:

- "أظنني قادر على فعل ما تطلبه، إن كنت تمتلك - أصلاً - القوة والمرونة للتسلق".

ابتلعت ما في الكلمات من رائحة تهكم، ولم أدعها تطفئ جذوة الحماسة في قولي الحاسم:

- "سأفعلها".

- "وماذا عنا؟"

سألت ياسمين، فأجبتها قاطعًا:

- "انتظرا هنا.. وهاتفانا إن رأيتما ما يريب".

قبضت بيدي على سياج السور فورًا، معلنًا انتهاء النقاش، والبدء في تنفيذ مخططي، دون أن أمنح الطفلين العاشقين فرصة لمراجعة أوامري أو الاعتراض عليها.

الفتى يحكي

ها أنا يا أبي حرٌّ أخيرًا.. أنا والليل، والهواء، والسحب، واللامكان. العالم بعيد، بقذارته، وصخبه، ووهجه، بناسه، وغازات زفيرهم الخانقة.. أنا هنا أتنفس هوائي وحدي يا أبي. أليس هذا ما تمنيته لي؟

ربما لم يفعل، فعلاقاتي بأبي لم تمتد لأكثر من الأعوام الأولى من عمري.. مات وأنا بعد طفل. كان له شارب كثيف يخفي وراءه طفلًا عملاقًا.. لم أزل أتذكر ألعابنا معًا، مقالبنا الثقيلة التي ننسجها بإتقان لتقع فيها أمي كل مرة. وفي كل مرة تصرخ لتلعنه وتلعن ضآلة عقله، وهو يضحك ولا يبالي.. لم أزل أتذكر اصطحابه لي من المدرسة؛ وفي طريقنا إلى البيت يتوقف لشراء كرة مطاطية صغيرة، ونركض في الشوارع الجانبية الخالية، نمرر الكرة فيما بيننا ونضحك.. ونعود إلى البيت بملابس متربة، أو أحذية ممزقة، فتصرخ أمي لتلعنه وتلعن ضآلة عقله، وهو يضحك ولا يبالي.. لم أزل أتذكر استئجارنا للدراجات في أمسيات الخميس..



متجاورين ننطلق بنزق، نقطع الشوارع غير الممهدة، والنتوء المعدني البارز من ماسورة الدراجة، يقطع بنطالي. فنعود إلى البيت متسللين، لكن أمي تكشف فعلتنا، فتصرخ في وجه أبي لتلعنه وتلعن ضآلة عقله، وهو يضحك ولا يبالي.. لم أزل أتذكر جلستي منكمشًا داخل حدود جسده على الكنبة أمام التليفزيون، نتابع برنامج "سينما الأطفال" في صباحات الجمعة. لم تزل في أنفي رائحته في تلك الأوقات ـ تنافس رائحة البخور الذي تشعله أمي ـ رائحة الصابون والماء الساخن وكولونيا خمس خمسات، بعد الاستحمام الوجوبي، فور الاستيقاظ المنعش صباح يوم الإجازة.. كانت هذه هي أخر صورة له في ذهني.. كنا نشاهد كرتون "أليس في بلاد العجائب"، قلت له كما يقتضي خيال طفل:

ـ "أريدك أن تأخذني إلى أرض العجائب".

ضحك حتى سعل، ومن بين الأنفاس المتقطعة قال:

ـ "يومًا ما سآخذك إلى هناك".



وكانت هذه هي أخر كلماته.. مات أبي على الجلسة ذاتها، ولم أنتبه إلى موته إلا على هزات يد أمي وعويلها.

هذا كل ما أعرفه عن أبي، فلماذا أعتقد أنه كان سيفخر بي لحظتها، إن رآني متحررًا من أثقالي ومحلقًّا لأول مرة تحت السماء؟ ربما وفاته المبكرة أبقته في رأسي كصورة للصديق الوحيد، الشخص الحكيم الجدير بصحبتي.. ربما إن طال به العمر حتى كبر بي العقل والإدراك، لاكتشفت أنه واحد آخر منهم، مجرد فرد من أصحاب العقول القاصرة.. ربما شارك أمي احتفالات الكآبة التي تقيمها يوميًّا على شرف خيبة أملها في ابنها البكري! ربما يا أبي موتك مبكرًا هو ما أبقاني حيًّا حتى هذه اللحظة.. ربما كان هو وقود قدرتي على الاحتمال والنجاة في هذا العالم السخيف؛ فقد غادرتني مبكرًا، فقط لتترك لي صورة لمثل أتعلق به، حتى وإن كان محض خيال.. على وعد يا أبي بأن تصحبني في يوم ما إلى أرض العجائب.



كان لهذه الحالة الصوفية أن تنتهي، حين أجبرني الواجب على مغادرة برد السماء، إلى صهد الأرض من جديد، لأتمم واجبي، ودوري المحتوم في الرحلة.. كان عليّ أن أتجاهل وخزات الشك، التي تزداد في صدري نحو قائدنا العجوز، وأن أساعده على اجتياز السور إلى داخل الڤيلا. كما شاء أحطت خصره بذراعي، فبدأ بدر في تسلق السور، أعانه علي بقدر من الدفع إلى أعلى، حتى استوى الجسد العجوز عند قمة السور، فحملته في قفزة بطيئة، حطته بسلام على الأرض اليابسة، من بقايا حشائش وزروع، ذبلت منذ أزمان.. وجهت نظرة وابتسامة تشجيع نحو علي وياسمين، لما رأيت ما على وجهيهما من علامات توتر وقلق، فهز علي رأسه لي مشجعًا.

تحرك بدر بخفة نحو مبنى الڤيلا.. أشرت له إلى ماسورة صرف ممتدة حتى السطح، فلم يبد ترددًا، وشرع فورًا في تسلقها، مطمئنًا لإمساكي به كحزام أمان بشري.. قطع بدر رحلة التسلق على مراحل، تتخللها فترات قصيرة لالتقاط الأنفاس وإراحة



العضلات، حتى استقرت قدماه فوق سطح الفيلا، فانهار جالسًا لدقيقتين يلتقط أنفاسه، ثم نهض، وأشار إلى علي وياسمين ـ عبر الظلام الفاصل بينهم ـ أنه بخير.

فيم تفكر الآن يا بدر؟ ربما تفكر أن لحظتك المهمة تقترب.. سنوات قضيتها بينهم، ولكنك لم تكن أبدًا منهم كما كنت تظن وتتمنى.. الآن، وبعد الطرد من الجنة، ها أنت تقترب من ولوج قلبهم النابض، أنت على بعد خطوات من عقل النظام ومركز قوته. وربما يعتريك خوف، وتفكر في التراجع، وكأنك على وشك دخول قدس الأقداس، الذي لا يمكن أن يدنسه أمثالك.. ربما تخشى أن تحترق
يا بدر جزاء فعلتك، وأن تعرف أن نارهم ما عادت بردًا وسلامًا عليك..وأنت تتحرك نحو الباب المفتوح أمامك على ظلام دامس، أرى ساقيك ترتجفان، فتزداد حدة الوخزات، وصخب السؤال؛ فيم تفكر الآن يا بدر؟

أسبح حتى أتعلق بحافة الباب، التفت نحوه.. بمشاكسة متعمدة أسأله:

ـ "أخائف أنت؟".

حاول بدر الابتسام:

ـ "بل متوتر شوقًا".

ابتسمت معجبًا بإجابته، ثم دفعت جسدي يسبح عبر الباب، حيث الظلام.. أخرجت هاتفي وأشعلت ضوء كشافه، فرأيت درجات هابطة لأسفل. أنرت الطريق لبدر ودعوته لاتباعي.. سبحت أمامه هابطًا، وتركته يتعثر في خطوات مترددة فوق السلم القديم شبه المتهالك، وبلغت منتهى الهبوط قبله.

في نهاية السلم، كان ثمة بهو مظلم، لم يكن بالاتساع الذي قد توحي به مساحة الفيلا عند معاينتها من الخارج، ولكن في نهاية البهو كان باب ضخم موارب، يتسلل من خلفه ضوء أصفر ضعيف. بلغني بدر فأشار إليّ أن أطفئ مصباحي، فامتثلت. تقدم بدر بخطوات حذرة، ولكن خشب الأرضية القديم كان يصر تحت قدميه محدثًا صوتًا، بدا في الصمت القائم كهدير

المدافع.. أمسكت كتفيه أدفعه للتوقف. السير على أرض كهذه ليس حلًّا أيها العجوز، بل أنا هو الحل! تقدمت سابحًا في الهواء، بلا صوت، ولا حتى صوت الأنفاس التي كتمتها؛ ربما حذرًا، وربما ترقبًا. بلغت فرجة الباب، فاقتحمتها ببصري. وبدر ورائي أشعر بسخونة احتراق لهفته ليسألني عما أراه! لكن صمتي لحظتها لم يكن لزيادة ناره اتقادًا.. لم أتعمد إغاظتك يا بدر صدقني. ولكن ما رأيته أمامي في تلك اللحظة هو ببساطة تجسيد لأسوأ كوابيسي.. إنه صحيح. ما خشيته يتحقق، قوتهم وجبروتهم بلغا بالفعل هذا الحد.

أمام صمتي فقد بدر القدرة على الحذر، فتقدم غير عابئ بصرير الأرض، دفع الباب ليوسع الفرجة، غير عابئ بانكشاف أمرنا.. وقف بجواري مفتوح الفم.. أمامنا آلاف الأرفف، تحوي ملايين، بل مليارات الملفات المتربة المتهرئة، ذات الأغلفة السوداء..

ـ "إنه صحيح.. صحيح".

ضرب بدر بكل قواعد الحذر عرض الحائط، وهو يصرخ بتلك الكلمات. وفي اللحظة التالية، كان قد دفع الباب واندفع إلى منتصف قاعة الأرشيف، الذي كان مضاء بمئات الشموع المتناثرة فوق الأرفف، بترتيب مدروس، يجعلها تغطي بضوئها كل الجنبات، كمعبد بوذي قديم.. لم أستسغ فعله المتهور؛ كيف لرجل بمثل عمره وخبراته ـ الواقعية والسحرية ـ أن يقع في أخطاء طفولية كتلك، لمجرد أنه
لا يستطيع كتم انفعاله؟

ـ "تعال.. القاعة خالية".

انفعاله وفضوله ـ وربما جشعه ـ أعمياه عن ملاحظة أن القاعة ليست خالية. كيف لم يلاحظ ذلك الرجل الجالس إلى مكتب خشبي عتيق في ركن القاعة، وقد أولانا ظهره؟ بل كيف لم ينتبه هذا الرجل لما أحدثه بدر من ضجة؟!

سبحت حتى موضع بدر.. صامتًا، أشرت له نحو الرجل الجالس.. التفت بدر، فبدا عليه توتر، قبل أن يقتحم

عيني بنظرات دهشة..

ـ "إنه موظف الأرشيف بالتأكيد".

قالها همسًا، فأجبته بالهمس ذاته:

ـ "كيف لم ينتبه؟".

تقدم بدر بخطوات بطيئة من الرجل..

ـ "على كل حال، نحن بحاجة إلى تعاونه.. برضاه أو دونه".

الوخزات من جديد.. وهو أمر طبيعي أن يعاودني الشك، وأنا أسمعك يا بدر تتحدث بكلمات تشبه ما يقال على ألسنة مجرمي السينما! والآن تأتي ـ بعد الكلمات ـ بهذا الفعل الجنوني؛ يد بدر تسللت إلى جيبه بحذر يوافق حذر خطواته، لتخرج حاملة مسدسًا! من أين لك به؟! ولماذا أصلًا يكون في مغامرتنا البريئة مسدس؟ كيف يعين المسدس أناسًا خرجوا بحثًا عن

الحكمة؟! أي جنون هذا
يا بدر؟!

مندفعًا طرت نحو بدر، وأمسكت يده:

- "ماذا تظنك فاعلاً؟".

- "أستكمل خطتي".

بفضول بدا ربما زائدًا عن حدود الموقف، سألته:

- "ومن أين لك بالمسدس؟".

- "سرقته من مقتنيات والد علي".

عندها عدت لانفعال الموقف:

- "اسمع، لا داعي للعنف.. الرجل يبدو عجوزًا.. هو أصلًا
لا يسمعنا".

- "هذا لا يضمن ولاءه".

نظرت نحو الرجل.. منكفئ للأمام، كتفاه متهدلتان، وكأنما يكتب أو يقرأ، ولكن لا حركة تنتج عن جسده الساكن، هل هو ميت؟!

- "اسمع.. دعني أحاول أولًا".

ابتسم بدر ساخرًا:

- "وماذا بيد شاب مثلك، بلا أي قدرات على التواصل مع البشر، أن يفعل في حالة كتلك؟".

الأمر الآن لا يحتمل التباسًا للمعاني: هو يستهين بي، ولا ترجمة لقوله غير هذا. لكني لن أبدها له الآن، سأتماسك وأهدأ، كما اعتدت أن أفعل؛ خاصة وأني لا أرجو استفزاز شخص يمسك مسدسًا؛ شخص ما عدت أملك نحوه يقينًا.

- "دعني أر ما بإمكاني فعله".

لان وجه بدر تحت ثقل الاستسلام، فاستدرت سابحًا ببطء نحو الرجل الجالس.. رأسي فارغ تمامًا، خواء

مزعج، صاخب، له ثقل مؤلم. لا أدري شيئًا عن خطوتي التالية، أنا فقط أرتجل، ربما أحاول أن أثبت لرفيقي أني قادر على فعلها.. وماذا عن هذا الرجل الساكن؟ هل هو ميت؟ أو ربما نائم؟ لكنه ليس وضعًا معتادًا لجسد ميت أو نائم. عندما انكشف لعيني المزيد من الجسد الجالس، أدركت أن سكونه لانهماك فيما بين يديه.. كان الرجل يمسك هاتفًا كبيرًا، تعرض شاشته مقطعًا مصورًا، لم أنتبه في البدء لمحتواه، ولم أهتم حتى بالنظر، حتى التفت إليّ الرجل، وبوسع ابتسامته قال:

ـ "انظر إلى هذا المقطع.. معجزة.. أليس كذلك؟".

الصدمة أفقدتني النطق، ولم أدر بم أجيب حميمية الرجل غير المتوقعة! حتى أني نظرت نحو بدر معلنًا عجزي، فأشار برأسه بمعنى: استمر.. الرجل كان عجوزًا جدًّا، وجهه بدا ـ لكثرة تجاعيده ـ وكأنما بدأ رحلة استعادة خواص الطين، فربما تحول قريبًا إلى حالة سائلة قبل أن يذوب صاحبه، أو يعود ترابًا فتذروه الرياح.

ـ "انظر.. انظر.. إنه رجل طائر".

كرر الرجل دعوته بحميمية أكبر.. كلماته لفتت انتباهي أخيرًا، فتناسيت عبثية الموقف للحظات، وانتبهت لما يعرضه المقطع المصور. كان المقطع يظهرني أثناء معجزة هروبي أمام أعين الأشهاد! التصوير مهتز، وصيحات الدهشة، والتكبير، والتسبيح ترج سماعات الهاتف.. ملامحي تبدو واضحة في بضع ثوان في منتصف المقطع.. اعتراني خوف، قلق طبيعي لشخص اعتاد الاختباء، وفجأة أصابه ما يشبه التعري أمام الملايين.. التفت إلى بدر:

ـ "تعال لترى هذا".

بدر ما كان يصدق ما يجري.. ثلاثتنا متحلقون حول الهاتف باعتيادية، وكأنما أصدقاء عمر نحن..

ـ "انتشارهذا المقطع قد يشكل خطرًا".

سكبت كلمات بدر ماءً باردًا على إحساسي المتمدد بالانتشاء:

- "ماذا تعني؟"

هز بدر رأسه:

- "نحن لا نعرف موقف النظام منك، بعد أن انكشف أمرك على الملأ بهذا الشكل".

موظف الأرشيف لحظتها انتبه لحديثنا.. استدار متأملًا وجهي.. أسدل على عينيه نظارة الرؤية التي كان يرفعها لحدود شعره الناحل، فأشرق وجهه:

- "يا الله.. إنه أنت.. أنت ذلك الشاب الطائر".

نهض الرجل منفعلاً..

- "لي ساعات أشاهد هذا المقطع وأدعو الله أن ألقاك.. الحمد لله".

تبادلت مع بدر نظرة دون تعليق.. الرجل شبَّ على أطراف أصابعه، ومد ذراعيه يمسك كتفي ويسحبني نحوه، متأملًا ملامحي عن قرب، مضيقًا عينيه..

- "كيف أتيت إلى هنا؟ أهي معجزة أخرى؟".

رغمًا عني وجهت نظرة أخرى نحو بدر، وكأنما انهارت أعمدة الثقة التي تعالت في صدري، وأنا أحلق في ظلام الليل، ولم يعد لدي سواك أيها العجوز لتسعفني بشيء من حيلتك.. أشار بدر إليّ أن أجاري الرجل، فامتثلت:

- "جئت لأراك".

ابتسم الرجل بسعادة طفل:

- "أنت تعرف.. أليس كذلك؟ أنت بالتأكيد تعرف".

- "أعرف ماذا؟"

- "تعرف أنه قدرك.. هذا المكان هو مطافك الأخير".

متوجسًا سألت:

- "ماذا تعني؟"



لحظتها ارتفع الرجل عن الأرض موازيًا جسدي في تحليقه.. تراجع بدر خطوتين ونظره مشدوهًا نحونا. موظف الأرشيف قال:

ـ "كنت أظنني فريدًا من نوعي، لذا تحملت البقاء هنا كل تلك الأعوام لحاجة البلد لي.. أما الآن.. وبعد ظهورك، صار بإمكاني أن أتقاعد أخيرًا.. بإمكاني أن أسبح إلى سماء لا نهائية.. أن أعاود معانقة الحياة التي نسيت عبق أندائها".

ـ "أنا لا أفهم ما علاقتي بهذا".

في الحقيقة كنت أفهم.. فقط ـ لأسباب تتعلق بالإنكار ـ كنت أرفض الاعتراف..

ـ "أنت ستحل محلي. وأنا سأخرج من هنا".

استدار موظف الأرشيف إلى بدر، وكأنما اختاره هو لحمل أمانة إجابة تساؤلاته:



- "كيف حال الطقس الليلة؟ هل هناك في السماء سحب؟ أنت
لا تعرف متعة السباحة بين السحب.. إنه كالاغتسال من كل وساخات العمر".

بدر حاول إعادة الحوار لمسارته الطبيعية:

- "اسمع.. نحن لم نأت إلى هنا من أجل هذا.. إنهم حتى
لا يعلمون بوجودنا هنا".

بدر تحدث ببطء، وكأنما يزن الكلمات قبل نطقها، فقال موظف الأرشيف:

- "إنهم يعلمون كل شيء.. انظر".

قالها ورفع الهاتف، ليضع المقطع المصور أمام عيني بدر:

- "لقد رأوه.. هم يعلمون بوجوده.. وبالتأكيد يفكرون فيما أفكر فيه الآن نفسه".



- "لكنني هارب منهم".

قلتها، فأجاب موظف الأرشيف:

- "هذه أمور لا تحدث أي فارق بالنسبة لهم.. هم يعرفون كيف يحصلون عليك.. تمامًا كما فعلوا معي. أهلي أخفوني طويلًا عن العيون. حتى أنهم حملوني وغادروا الدنيا نحو الجبال البعيدة لنسكن فيها.. بنى أبي بيتًا من خشب وصفيح.. عشنا على زرع أيدينا وماء الينابيع...".

توقف العجوز فجأة. تلونت الملامح بدرجات رمادية حزينة، كان يستعيد ذكريات تؤلمه حلاوتها:

- "كانت حياة هادئة.. صافية.. وكنت أحلق وقتما أريد، وأينما أريد.. أعانق السحب.. أداعب الثلوج على رؤوس الجبال.. أكتشف عمق الأخاديد التي لم يصلها بشر.. كنت أكتسب المعرفة والسلام والحكمة، ولكن هذا لم يدم طويلًا.. في فج عميق وجدتها ووجدتني.

صمت الرجل، وعاد إلى مكتبه يبعثر الأوراق بحثًا عن شيء.. بدر تعجله متحمسًا للنهايات:

ـ "عم تتحدث؟"

حمل موظف الأرشيف ورقة يتوسطها رسم بالقلم الرصاص، وعرضها أمام أعيننا.

ـ "هذه.. وجدتها نقش على جدار كهف.. لا أعرف إلى أي زمن يعود. ربما إلى الأجداد الأوائل. وربما حتى إلى ما قبل زمن الإنسان.. لكن ما أعرفه، أنها قادتهم إليّ".

كان الرسم لعين محدقة، تشبه تلك التي رأيتها في حلم علي.. شعرت بخوف، لا أعرف إن كان الخوف هو ما دفعني لذلك الفعل، أم غريزة النجاة؛ اختطفت الورقة من يد العجوز ومزقتها، بعثرتها في الهواء أمام نظراته التائهة، ونظرات بدر المندهشة.

موظف الأرشيف ابتسم بعد حزن..

ـ "لا تخف يا بني.. فما عادت لهم من حاجة إلى العين.. فهي موجودة في كل مكان".

أشار الرجل إلى الكاميرا في ظهر الهاتف الذي يحمله:

ـ "موجودة هنا".

ثم رفع الإصبع نفسه ليشير إلى عينه:

ـ ".. وهنا".

أكمل الإصبع رحلته حتى رأس العجوز..

ـ ".. وحتى هنا".

كان منطق الرجل قويًا، لا أستطيع أن أنكر.. ولكن كان عليّ أن أقاوم للنهاية:

ـ "اسمع.. أنا لن أبقى هنا.. نحن في مهمة وسنغادر بمجرد إتمامها".

حتى هذه اللحظة لا أدرك إن كنت أكره الرجل أم أتعاطف معه.. لغز جديد يضاف إلى جعبة الألغاز

البشرية التي تثقل كاهلي. لماذا لا أفهمهم؟ هل هم حقًّا بهذا التعقيد؟ أم أن القصور في عقلي؟ ربما هناك عقول لا تنسجم مع فكرة اليقين، فتأبى إلا التأرجح بين الشك والاحتمالات. وحدك يا أبي تمثل في حياتي اليقين، والفضل للموت! في النهاية موظف الأرشيف مجرد عجوز مسكين محبوس في هذا المكان، يحلم بالخروج.. لكن بالطبع تعاطفي معه ـ إن افترضته كيقين ـ لن يصل إلى درجة مجاراته. إلا أن "بدر" كان على النقيض؛ إذ كان يظن أن مجاراة الرجل هي الحل.. وهو ما بدا في كلماته الملطفة:

ـ "هذا الشاب معي.. رفيق رحلة طويلة.. وليس بمقدوري الاستغناء عنه.. أنا عجوز كما ترى، وبحاجة إلى سند".

هز موظف الأرشيف رأسه:

ـ "الأمر ليس بيدك، أو حتى بيده.. السادة يعلمون بوجوده الآن.. ولن يتركوه.. هم يعلمون أني كبرت، وعلى تخوم الموت، ولابد من بديل".

قلت:

- "أنت تبدو كرجل طيب.. لماذا لا تساعدنا؟".

- "ولماذا أساعدكما؟".

تبادلت نظرة مع بدر، ثم قال:

- "إن ساعدتنا فبإمكان الفتى أن يساعدك".

نظرت إلى بدر مذهولا؛ وكأنه يراهن بي في لعبة بوكر مجنونة!

- "يجب أن يبقى".

قالها موظف الأرشيف..

- "أنا أحتاجه.. لكني سأجعله يعود إليك.. أعدك بشرفي".

ابتسم موظف الأرشيف.

- "أنتما لا تفهمان".



قالها ثم حلق لأعلى، حتى بلغ منتهى الارتفاع.. أنصت، ثم هتف من عليائه:

- "لقد تحركوا بالفعل.. إنهم قادمون مِن أجله".

بدر تحسس جيبه حيث يسكن المسدس.. لاحظت الحركة التلقائية، هززت رأسي رافضًا أمام نظرات المشوشة المرتبكة، فتراجع.. حلقت إلى ارتفاع موظف الأرشيف، فواجهته.

- "لماذا لا تغادر معنا؟".

بدت على وجه الرجل علامات دهشة، تصارع علامات عدم الفهم، وكأنما ما سمعه جنونًا يتعسر تقبله.

- "أغادر! إلى أين؟".

أدركته بسرعة..

- "إلى السماء.. إلى السحاب وقمم الجبال. غادر معنا إلى الحياة؟".

ابتسم الرجل مشفقًا ـ كما يبدو ـ على عقل الشاب الضائع:

ـ "أغادر أنا؟ وتغادر أنت؟ ونترك الأرشيف؟".

أجبته متحمسًا:

ـ "نعم.. اترك الأرشيف.. لماذا تتمسك بالبقاء هنا؟ لماذا تتمسك بخدمتهم؟".

ابتسم الرجل..

ـ "لأنهم يعرفون كل شيء.. يملكون كل أنواع الحكمة.. يمسكون بالخيوط.. يحركون حتى السحاب.. ينصبون قمم الجبال، وينثرون عليها بياض الثلوج.. لأنني أجلهم وأحترمهم.. لأنني......".

اختفت ابتسامة موظف الأرشيف مع تعمق الأفكار.. كسا التجهم الوجه، ثم قاد العين لإنزال دمعة:

ـ "لأنني أخافهم.. أنا لا أستطيع الخروج، لأني مجبر على البقاء".

شعرت لحظتها أني أركض في المسار الصحيح:

ـ "ستخرج كما دخلنا".

ـ "بل أنتم ستحبسون هنا كما حُبست".

من موقعه أسفلنا، ربما شعر بدر بالتهميش، وهو ما دفعه ليصرخ ضجرًا:

ـ "ليس لدينا وقت لكل هذا الحوار.. يجب أن ننهي مهمتنا سريعًا".

اندفعت في القول:

ـ "ستساعدنا، وتمنحنا ما نريد بسرعة، ثم نخرج جميعًا من هنا قبل أن يصلوا".

هز موظف الأرشيف رأسه..

ـ "لن نستطيع منهم هربًا.. ألا تفهم؟"

عاجلته، مسرعًا النفاذ من الفجوة، التي رأيتها تفتح في رأس الرجل رغم خوفه..



ـ "أنت من لا يفهم.. أنت أقوى منهم.. أنت تملك القدرات التي لا يملكونها. ولهذا هم يحتاجونك.. يحتاجوننا.. أنا وأنت يمكننا بسهولة أن نهرب.. نقاوم.. نحارب.. نحن الأقوياء وليسوا هم.. أنت محبوس هنا لأنهم يخافونك".

أصر الرجل على حجته الوحيدة الباقية:

ـ "أنت لا تفهم".

ـ "بل أنت من لا يفهم.. هم لن يسمحوا لك بالخروج أبدًا، حتى وإن توافر أمامهم البديل؛ لأنك تعرف عنهم كل شيء.. تعرف أدق الأسرار".

ارتجف موظف الأرشيف.. أطرق رأسه. بدأ جسده رحلة الهبوط، هو يعرف أن كلماتي تحمل الصواب الذي يخشى مواجهته. لذا عندما لامست قدماه الأرض، ورغم أني تبعته مقتربًا، إلا أن كلمات الرجل توجهت إلى بدر:

ـ "ماذا تريدان أن تعرفا؟".

متلهفًا، قال بدر:

ـ "نريد أن نعرف كل ما تعرفه عن شجرة الحكمة".

على عكس كل ما توقعته من ردود أفعال، ابتسم موظف الأرشيف؛ ابتسامة اتسعت فرسمت فرحة، وفرحة تمددت فصارت نشوة ارتج لها جسده:

ـ "شجرة الحكمة؟! لم يسبق أن سُئلت عنها من قبل.. السادة وضعوها في تصنيف المعلومات غير ذات الجدوى.. لم يصدق أي منهم يومًا وجودها، رغم امتلاء الأرشيف بآلاف الأحاديث السرية عنها، وآلاف الأحلام المرصودة التي ضمتها".

تهدَّج صوته دفعني للمزيد من التعاطف.. ربما أنا في طريقي إلى تبني يقين جديد يا أبي:

ـ "هل تصدق وجودها؟".

انطفأت ابتسامته.. زاغت نظراته لفترة:

ـ "أنا لا أستطيع أن أصدق أيًّا من محتويات تصنيف "المعلومات غير ذات الجدوى".. هذا محرم.. أنا لا أصدق وجود شجرة الحكمة.. كما لا أصدق وجود الغول، أو النداهة، أو لعنة الفراعنة، أو الحرية المطلقة. أنا لا أصدق حتى وجود هذا الأرشيف، مادام أن السادة ينكرون وجوده.. حتى وجودي الذاتي محل شك بالنسبة لي في كثير من الأحيان".

طريقته الآلية المرتعشة في الكلام دفعتني لأن أربت كتفيه.. لأن أدعوه للهدوء.. لأن أقول مترفقًا:

ـ "نحن لسنا منهم، فلا تخف.. بإمكانك أن تخبرنا بحقيقة مشاعرك".

ـ "مشاعري؟!".

لفظها باستغراب، وكأنما لم يفهمها، أو لم يعتد وقعها.. بدر كان عمليًّا:

ـ "المهم هو ما تعرفه عن الشجرة".

أدار الرجل نظره عبر أرفف الأرشيف، وكأنما يبحث عن شيء ما، ثم اتسعت عيناه، ونظر نحو بدر وكأنما اكتشفه للتو، وقال:

ـ "بالعكس.. ما أعرفه عن الشجرة ليس مهمًّا.. مادام أنها في تصنيف المعلومات غير ذات الجدوى".

انفلتت أعصاب بدر:

ـ "اللعنة على تصنيفاتك.. ما دخلنا نحن بهذا؟!".

ارتجف الرجل، تقلصت ملامحه ألمًا، تعاطفت معه أكثر لحظتها، هذا رجل مسكين طُعِنَ للتوِّ في مقدساته.. أكمل بدر:

ـ "نحن لا نقصد إساءة.. ولسنا هنا نبغي شرًّا.. نريد فقط بعض المعلومات".

عاد الرجل إلى أعماق أفكاره، باحثًا عن مسار صحيح:

ـ "حسنًا.. سأفعلها.. سأخون الأسياد".

هدأت من روع الرجل:

ـ "أنت تفعلها من أجل حريتك.. فلا تبالي بهم.. لأنهم لا يبالون بك".

نظر الرجل طويلاً إلى الأرض.. بدأ جسده رحلة ارتفاع بطيئة، والكلمات تنساب من فمه:

ـ "شجرة الحكمة ليست بعد شجرة مكتملة.. لم تزل روح الإنسان ـ البذرة ـ حاضرة، قادرة على التواصل والمخاطبة. الرجل لم يكن حكيمًا، ولا وليًّا صالحًا كما يدَّعون. وإنما هو شاب، في لحظة قتل أباه، ودفنه في موضع نبت الشجرة. دم الشاب الحار، وحكمة الأب الأضحية، وطين الأرض العتيقة، هم منبت روح الشجرة، وقلبها الذي لم يزل ينبض إلى حين".

سألته:

ـ "إلى متى؟".

لكن بدر سأل:

- "وأين هي؟".

دار موظف الأرشيف أمام الأرفف، يبحث عن ضالة ما:

- "للشجرة أماكن عديدة. في كل حديث ورد فيه ذكرها يتغير المكان. ولكن الوصف دائمًا واحد".

قاطعه بدر متلهفًا:

- "في حقل قمح واسع قرب نهاية النهر، حيث تسمع عنده صخب نوارس البحر".

ابتسم موظف الأرشيف..

- "أنت تعلم إذًا أكثر مما تبدي".

تدارك بدر أمره:

- "هذا كل ما أعرفه.. أنا في حاجة إلى معرفة المكان تحديدًا".

ساخرًا تكلم موظف الأرشيف:

ـ "تحديدًا! ومن يعرف مكانها تحديدًا؟! هل تظن أن الأسياد لم يخرجوا الحملات بحثًا عنها؟! هل تعتقد أنهم وضعوها ضمن تصنيف المعلومات غير ذات الجدوى، دون تحقق؟".

قلت مبديًا دهشة:

ـ "لكنك منذ دقائق كنت تتكلم، وكأنك مؤمن بوجودها".

توقف الرجل للحظة:

ـ "ربما هي موجودة بالفعل.. ولكن لا علم عندنا بمكانها المحدد.. وإلا لكان الأسياد وجدوها، واحتكروا حكمتها".

واصل موظف الأرشيف بحثه، الذي انتهى أمام أحد الأرفف.. تناول منه ملفًا عتيقًا، حمله وعاد إلى الأرض:

ـ "لكن هناك ذلك الرجل.. في ملفه حديث عن بيت ورثه عن أبيه، وأبوه ورثه عن أبيه.. البيت صغير،

يكفيه بالكاد وأبناءه الخمسة.. هذا البيت لم يثر ارتياب الأسياد، ولكنه أثار شكوكي، منذ أن وضعت في هذا الملف أول وثيقة تذكره".

ـ "كيف؟"

السؤال كان مني، والجواب كان:

ـ "البيت في منتصف حقل قديم للقمح.. خارج القرية، في بقعة،
لا يعقل أن يبني فيها أحدهم بيته.. والحقل عند نهاية النهر.. في موضع يمكنك أن تسمع منه...".

مشدوهًا قاطعه بدر:

ـ "صخب نوارس البحر".

ابتسم موظف الأرشيف:

ـ "بالضبط".

عندها لم أستطع كتم حيرتي.. فقلت:

ـ "لكن لماذا لم تخبر الأسيـ... تخبرهم بمعلومة كتلك؟".

ارتفع موظف الأرشيف إلى مستواي:

ـ "لأنني مجرد حافظ لتلك الملفات.. أنا أحفظ ما يطلبون مني حفظه، وأستدعي فقط ما أسأل عنه.. لا أبادر بفعل.. أو أتطوع بقول.. لأن ما لا أسأل عنه، هو بالتأكيد أمر غير ذي أهمية".

قالها، ومد يده نحوي بالملف:

ـ "ستجد العنوان هنا".

بدر مد يده بيننا يختطف الملف، حتى أنه اضطر لأن يقفز قفزة قصيرة لتبلغ يده موضع تحليقنا.. وضع الملف فوق مكتب موظف الأرشيف، قرب منه شمعة، وبدأ يقلب صفحاته بحثًا.. الغريب أني ما عدت أجاريه في فضوله. بشكل ما كان موظف الأرشيف أكثر قدرة على إثارة فضولي وتعاطفي، حتى أني أتساءل الآن عن جدوى البحث عن الشجرة، وأنا بالفعل الآن في



حضرة شخص، يعرف كل شيء. ما مقدار الحكمة التي يمتلكها رجل كهذا؟ رجل صعد إلى قمم الجبال، وغاص إلى أعماق الأخاديد، قبل أن يمضي الأعوام هنا، يسبح وسط عقول وحيوات ملايين البشر؟ رجل كهذا يجب أن يكون مخيفًا.. أن يتسيد العالم بحكمته، لا أن يمضي به العمر كعبد ذليل يخشى سوط الأسياد".

ـ "تعال معنا.. لقد انتهينا.. وسنخرجك من هنا".

بدر انتبه لكلماتي، فانصرف اهتمامه عن الملف، وتأملني مندهشًا:

ـ "يأتي معنا.. إلى أين؟!".

ـ "سنخرجه من هنا. فلا بقاء له في هذا المكان. يكفيه ما ضاع من عمره".

ـ "وماذا سنفعل نحن به؟!".

كنت منفعلًا وأنا أقترب من بدر.. منفعلًا من موقفه، ومن قلة احترامه لمشاعر الرجل المنصت لكلماته:



ـ "ألا تفهم؟ هذا الرجل ربما كان هو ذاته شجرة الحكمة.. ربما نجد عنده الإجابات".

ـ "أنت تخرف".

لم أتوقف كثيرًا عند الإهانة، وواصلت:

ـ "انظر إليه.. إنه أكثر كمالًا مني.. إنه قادر على أن يلمس الأرض.. هو لا يطفو مثلي بغير هدى.. بل هو يطير بإرادته".

تدخل موظف الأرشيف في الحديث:

ـ "لقد كنت مثلك لا أقدر على لمس الأرض.. الأسياد هم من علموني كيف أفعلها".

شرد الرجل بعيدًا، قبل أن يعود تصحبه ابتسامة على وجهه..

ـ "أتعرف؟ لقد منحوني الكثير.. ولن أقدر على خيانتهم".

أدمعت عيناه وهو يتابع:

ـ "يكفيني ما فعلته.. أنا لن أتخلى عن عملي".

عدت أوازي ارتفاعه:

ـ "إذا كان عملك يتطلب أن تفني ذاتك وروحك وإنسانيتك فيه.. فلتتخلَّ عنه بالطبع.. لا عمل يستحق أن تذوب في مكان كهذا لأجله".

ـ "بالطبع هناك أعمال تستحق.. هذا عمل عظيم.. ربما كان شاقًّا.. أو مخيفًا.. ربما أنفق لأجله ثمنًا غاليًا.. ولكن على أحدنا القيام به لأجل الدولة.. لأجل الغد".

هززت رأسي أسفًا:

ـ "أنت تردد شعارات".

أمسك موظف الأرشيف يدي، وارتفع لأعلى يسحبني وراءه.. عدنا إلى أعلى نقطة في القاعة، ليتحدث الرجل بعدها بالهمس، لضمان المزيد من السرية:

ـ "الجنة لها نارها.. لتأكل لحم الطير، وتلعب في شتاء دافئ، لابد من نار.. والنار لابد لها من حطب لتأكله.. على أحدنا أن يكون هذا الحطب.. أن يحترق لأجل أن يتمتع الناس بجنتهم، وهذا هو دوري العظيم.. وربما يكون دورك من بعدي، إن فشلت رحلة هروبك".

ـ "لكن أسيادك لن يصنعوا الجنة.. ولو بعد مليون عام".

بدا على الرجل توترٌ.. أشاح بوجهه، وتحرك مبتعدًا.. صوته تعالى في قول:

ـ "لقد حصلتما على ما جئتما لأجله.. ارحلا الآن فقد اقتربوا".

كان بدر يدس ورقة صغيرة في جيبه، حين قال:

ـ "معك حق.. لقد انتهينا.. هيا يا حمزة".

قالها واندفع نحو الباب خارجًا.. تسمرت في مكاني قليلاً؛ أشعر أن الخروج الآن ليس هو الخطوة المثلى، وكأني معلق في المكان.. وكأن مهمتي هنا لم تنته بعد.

لقد وجدت يقين المحبة لأول مرة في بني البشر. حتى علي، وياسمين، رفيقا الرحلة، حتى أمي، لم أحمل لأي منهم يقين الحب، كما أحمله الآن لهذا الرجل.. حتى أنك يا أبي تتزحزح في المكانة، وأشعر بأن اليقين الذي حملته لك محض ادعاء طفل، يبحث عن أي أمل.. ربما أنت يا أبي كنت واحدًا منهم. أما هذا الرجل فلا، هذا الرجل هو نقيض البشر.. أتأمله في طفوه البطيء، ذيل من الشجن يتحرك خلفه كالنجمة السيّارة، فأشعر أكثر بمسئولية ما نحوه.. وباندفاع غير مسئول، أقول:

ـ "سأعود إذًا".

فيجيبني بما لم أنتظره:

ـ "لا أعتقد.. لكني شاكر تعاطفك على كل حال".

عندها لا أجد ما أضيفه.. أبدأ رحلتي نحو باب القاعة، ولكني أتذكر أمرًا، أقاومه في البدء بدعوى أن الوقت ليس مناسبًا، أو بحجة أن ما فات قد مات، ولا داعي

لنبشه.. لكني لم أزل أتحرق للمعرفة؛ لذا أستسلم للفضول، وأعاود التحليق صوب الرجل.

- "عندي طلب أخير.. في ملفي الموجود عندك، ورقة صغيرة مكتوبة بخط يدي، تحوي سؤالاً واحدًا فقط، أردت توجيهه منذ سنوات لبدر الوكيل.. ولكني نسيته".

ابتسم موظف الأرشيف بحميمية:

- "إنه أنت ذلك الشاب صاحب الملف الخالي إلا من ورقة واحدة، بها سؤال مكتوب بخط يدوي ردئ".

لم أخف دهشتي:

- "أنت تعرفني؟".

تجهم موظف الأرشيف، عقد حاجبيه، وكأنما يسعى جاهدًا وراء ذكرى ما:

- "لقد كان ملفك عجيبًا، ملف خال وسط هذا العالم، لهو أمر غير معتاد، وكأنك لم توجد، وكأنك عدم يا



بني.. مجرد هباء بلا أي أثر في دوامة الوجود".

هل أصارحه أن كلماته هي أجمل ما سمعت طيلة حياتي؟ وأنه لا داعي لنبرات الحزن والمواساة؟ ربما أنا لست هنا؛ لأني لست من مواليد هذا العالم.. أنا أنتمي إلى هناك، إلى أرض العجائب؛ حيث رحلتي المنتظرة مع والدي.

أخرجني صوت الرجل من خواطري:

ـ "أنا لا أذكر اسمك.. لكني أذكر السؤال جيدًا.. أتريد أن تعرف ماذا كان؟".

***

البنت تحكي

غاب عن أعيننا بدر وحمزة وراء سور الفيلا، وتركانا وحيدين في خواء ليل بارد ثقيل الوطأة. يحاصرنا برده مع برد الخوف يعتصر أحشاءنا.. لا أعرف هل هو خوف من انكشاف أمرنا، أو فشل رحلتنا، أم هو خوف من أن نترك ـ علي وأنا ـ وحدنا دون خبرة بدر، وعزيمة حمزة. أشعر أننا طفلان، لا يملكان سوى النزق، ومشاعر تتناثر في كل اتجاه ببساطة دون سيطرة.. ونحن من ظننا طويلاً أننا أقوى من العالم، وأننا ـ وحدنا ـ قادران على مواجهة كل الأخطار.. فها نحن الآن كطفلين يتيمين على وشك البكاء ومناداة الأم المفقودة.

بحثًا عن الأمان، قبضت على كف علي، ولاصقته بجسدي كطفلة تختبئ.. شعرت برجفة توتر في جسده، ولكنني شعرت معها بدفء واطمئنان. اللعنة، لم تزل تلك التصرفات العفوية تفاجئني، وتدفعني باستمرار بعيدًا عن رؤيتي المسبقة لذاتي.. من أعاند؟



لماذا لا أعترف لنفسي أني أحبه حقًّا؟ لماذا لا أعترف أني ضعيفة وهشة، أكثر من ورقة شجر جافة تتلاعب بها رياح الخريف؟ جلسنا على طرف الرصيف المقابل للڤيلا، أسفل شجرة وارفة، قادرة أن تخفي تكوين جسدينا، في تكوين جذعها الضخم.. التصقت به أكثر كقطة صغيرة. الغريب أننا لم نتكلم، لم نتبادل أي حوار، حتى من باب بث الاطمئنان، أو تمضية الوقت.. صمتنا تمامًا، ولكن أظن أن ما سرى بين جسدينا في هذه اللحظة كان يحمل الكثير من الكلمات.. تشجيع.. طمأنة.. محبة.. إشباع.. حتى أني نمت على كتفه.

عندما أيقظني علي، كان بدر أمامنا، متوترًا، يخبرنا بضرورة أن نتحرك الآن، فهم قريبون.. نهضنا وانطلقنا نقطع الطريق بخطوات سريعةٍ، سألناه في الطريق إن كانت مهمتها كللت بالنجاح، فأخرج من جيبه ورقة مطوية، وأخبرنا مبتسمًا:

- "إنه هنا".



مسافة كبيرة مشيناها حتى بلغنا مناطق معمورة، فاستقللنا سيارة أجرة، قادتنا إلى عنوان فندق صغير شعبي، أملاه بدر للسائق.

***

خطة بدر كانت معقدة، ويغلفها الكثير من الحذر، والاحتياطات الضرورية. في صباح يوم جمعة، استقللت معه القطار متجهين إلى تلك المدينة الريفية. نزلنا في المحطة المزدحمة، لحظة انطلاق أول صوت بعيد لآذان الظهر. علي وصل بعدنا بساعة في سيارة أجرة. كانت أولى قواعد الأمن التي وضعها بدر، أننا لن نرتحل معًا. هو من اختار أن أصحبه، برغم أن الاختيار الأول، والذي اندفعت أطرحه..

- "سأذهب أنا وعلي".

لكن بدر أفسد المبادرة فورًا:

- "وتتركان العجوز يذهب وحده؟".

لم أفهم كيف يمكن أن أكون للعجوز حماية وعونًا، وأنا ذاتي بحاجة للحماية والعون! لكن هكذا شاء بدر، فما اعترضنا على مشيئته.

قضينا اليوم بين المقاهي والتنزه على شاطئ النهر، أو التمدد في الحدائق. مع اندماجي في تلك الأحداث البسيطة، بدأت أشعر بقدر من السعادة والاكتفاء، وكأن هذا هو هدف الرحلة، أن أتعاطى تلك المتعة البدائية البسيطة، مع أكل سندويتشات الفول أمام النهر، أو إغماض العين في وجه السماء، فوق فراش من حشائش الأرض.. كنت أعود في هذه اللحظات طفلة، ولكنها طفلة تمارس نوعًا جديدًا من الطفولة، نوعًا لا يشمل سوى الانطلاق، ليس به مكان لدروس البيانو، والرقص، وتدريبات الإسكواش.. نوعًا من الطفولة لا تحده أسوار النوادي والمنتجعات الفاخرة، ولا يحتويه ضيق السيارات الفارهة. حتى وجودي مع بدر لم يعد في نظري الآن سوى تجسيد لعلاقة مفتقدة بالأب.. أخر مرة تنزهت فيها مع أبي كنت في عمر الخامسة، وكانت نزهتنا في حمام سباحة بيتنا! لعب معي في



الماء لدقيقتين، ثم خرج ليجيب اتصالا هاتفيًا مهمًّا، ولم يعد مرة أخرى.. يومها كدت أغرق، حين انفلتت يدي عن العوامة، لولا أن أنقذني أحد الخدم، فكافأه أبي بخمسين جنيهًا.

مع آذان المغرب، كان التعب قد أصابني.. لكن خطتنا لم تتضمن المبيت في هذه المدينة. كان علينا أن نتحمل إرهاق تلك الساعات، فنحن نعلم أن التعب إلى زوال قريب، فقد بات هدفنا على بعد دقائق.. لكني الآن لا أستطيع أن أفهم إصرار بدر على هذه الدرجة من التأمين، لدرجة إجبارنا على الانتظار بلا هدف مقنع في هذه المدينة حتى المساء، بحجة السعي لتضليل من يتبعنا إن وجد. إضافة إلى الاعتماد على تحليق حمزة فوق رؤوسنا لاستكشاف المسار، وضمان خلوه مما يثير الريبة، وهي المهمة التي لا يمكن أن تكون إلا ليلاً، فتحليق حمزة بالنهار أمر مستحيل، وينذر بكشف أكيد لأمرنا؛ خاصة وأن هذا النهار الريفي الذي قضيناه هنا، كشف لنا مقدار ما صنعه ظهور الفتى الطائر من ضجة.



المقطع المصور هو الأكثر انتشارًا، وهناك صورة مشوشة لوجه حمزة ـ مأخوذة من المقطع المصور ـ تتصدر صفحات الجرائد، التي اشترى منها بدر في القطار ثلاث، ليرى ما يُحْكى عن الصورة، فما وجد غير علامات استفهام، وتساؤلات عن هوية هذا الشاب، والذي أكدت الجرائد كلها أن الشرطة كانت تطارده لسبب غير معلوم، وفشلت كل المحاولات الصحفية في استنطاق مصادر وزارة الداخلية، لإصدار تصريح عن طبيعة الجريمة التي ارتكبها الفتى الطائر، وعن أسباب مطاردته. ولم تخل الأخبار من بعض التشكيك في مدى صحة المقطع المصور، حيث ذهبت بعض الآراء إلى كون الأمر كله مجرد خدعة تقنية مصنوعة بمهارة.

وعندما قابلنا علي في وقت لاحق، حدثنا عن رحلته في السيارة الأجرة، وكيف دار الحديث طوال ساعات السفر بين جيران الترحال عن الفتى الطائر؛ البعض مشكك، والبعض مصدق، ومنهم من تحدث عن علامات الساعة.

هذا الزخم ضايق بدر، فقد رأى فيه تعطيلًا وتهديدًا لرحلتنا، فقد بات اعتمادنا على حمزة وقدرته الخاصة أقل أمانًا، فأي مشاهدة جديدة للفتى الطائر في السماء لن تمر على خير، خاصة والناس ـ كما لاحظ بدر ـ في المدينة يسيرون وأعينهم مرفوعة لأعلى، وكأنما في انتظار أن يباغتهم الحظ برؤية سحرية لهذا الحدث الاستثنائي.

كذلك كان الاعتقاد السائد عند بدر، أن الشرطة لا تعرف عن حمزة سوى شكله، وفقًا لما رأوه حين اقتحامه لحلم علي.. بالتأكيد هم يسعون الآن لاكتشاف هويته. وبالتأكيد تحول وجهه لأيقونة شهيرة في ليلة وضحاها، يهدد بالتسريع من نجاح الشرطة في معرفة كل صغيرة وكبيرة عن حمزة، بما فيها رقم هاتفه، والذي ظل حتى الآن وسيلة الاتصال الوحيدة بيننا، بعد أن اضطررنا للتخلص من هواتفنا خوفًا من تتبعها.. بدر كان يفكر في تلك النقطة، وهو يتصل بهاتف حمزة من سنترال صغير، قريب من كورنيش النهر. كانت صلاة العشاء قد انتهت للتو في

معظم المساجد، وهو الوقت المتفق عليه لتحركنا. حمزة أخبره أن الطريق يبدو آمنًا. الحياة في المدينة الصغيرة تبدو عادية؛ إذ لم يرصد أية تحركات مريبة للشرطة، بعد جولتين.. في سماء المدينة. الكلمات كانت مطمئنة لبدر، فقرر أن يتحرك حتى يدرك علي في نقطة الالتقاء التي حددها لنا من قبل، عند موقف سيارات الأجرة، التي ستقلنا إلى القرية المنشودة.

وقتها كنت جالسة على مقعد خشبي عند الكورنيش.. أتصفح جريدة، على ضوء عامود الإنارة المجاور. عاد بدر من السنترال، لخص لي فحوى المكالمة، ثم أصدر أمره:

ـ "سنتحرك الآن".

رفعت عيني عن الجريدة بعد فترة استغراق.. طويتها مع زميلتيها، وتركتهم فوق المقعد ونهضت:

ـ "أكنت تبحثين عن شيء؟".

ـ "أي شيء له علاقة باختفاء نوح وجودي".



هز بدر رأسه..

- "لقد اتفقنا سلفًا أن الأمر لا يعني أحدًا، فلا تتوقعي منهم أي اهتمام".

- "لقد توقعت أن أجد حوادث مشابهة.. لكن لا شيء".

ربما أنا فقط في هذه اللحظة، كنت أحاول إرضاء ذلك الصوت اللحوح في عقلي، والذي يسألني في كل دقيقة: ماذا تفعلين هنا؟ منذ أن بدأت الرحلة وتفكيري في قضية اختفاء الطفلين يتراجع.. أتذكرهما فقط مصادفة كل حين. فما الداعي لبذل الجهد؟ ألم يكونا هما سبب مشاركتي في تلك المغامرة؟ وكأنها عجلة دارت متسارعة، واشتبكت بها دون أمل في الخلاص، وكأنها رحلة مفروضة أتحرك فيها دون إرادة.. وكأن الرحلة هي الهدف، وبلوغ الشجرة هو منتهى الرجاء.. ربما لأني بدأت أعثر بالفعل على إجابات، في حين لم تبدأ الرحلة بعد.. ربما قراري ألا أذهب معهما دون علي، هو إجابة. ربما خوفي على علي وشعور الذنب يقتلني، هو إجابة.. ربما نومي مطمئنة على كتفه، في قلب



دوامة الخوف والقلق، هو إجابة. أنا فقط أخشى أن أعترف أني وجدت الإجابات، وعرفت ماذا أريد حقًّا.. ربما لأني لا أملك حماس بدر، أو حسم علي وصراحته مع ذاته، أو إخلاص حمزة لهدفه وإصراره عليه.. الحقيقة أني مجرد فتاة مذبذبة، مشوهة بشكل ما، ربما بسبب ضعف معرفتي بذاتي، لطول الغوص في حياة الاصطناع، واستمداد دوافعي من مخالفة رغبات الأب، وليس من رغباتي الشخصية، والتي لا أعرف ـ حتى الآن ـ ما هي!

***

العجوز يحكي

لماذا أزداد عصبية كلما اقتربت من تحقيق الهدف؟ أتفه الأمور الآن باتت قادرة على استفزازي إلى حد الثورة.. التقارب الذي ألاحظه يزداد بين علي وياسمين ساعة تلو الأخرى يستفزني.. أحاديث الناس في كل مكان أخطوه عن الفتى الطائر تستفزني.. الحلم الجنسي الذي رأيته ليلة أمس، وكنت فيه مع زوجتي، يستفزني! فجأة، صارت أعصابي كتلة من لهب دائم الاشتعال، فلماذا؟ أحاول طوال الوقت أن أبحث بداخلي عن الحقيقة، بلا تجميل أو مواراة.. لماذا صرت أخشى العثور على الشجرة؟ لماذا صرت أخشى فكرة البحث عن ماهيتي، والتي كانت في البدء شرارة تلك الرحلة؟ لماذا فقدت الرحلة معناها؟ لماذا خفت صوت الحيرة، وسؤال الهوية؟ لماذا تستمر
يا بدر؟ ألأنك تحاول إقناعهم ـ أو إقناع ذاتك ـ بأنك عكس ما تظنه الآن عن نفسك؟!



عندما أنهيت مكالمتي الأخيرة مع حمزة، مختنقًا داخل ضيق السنترال سيء التهوية. في يدي الهاتف الصغير قديم الطراز؛ تملكتني رغبة في مهاتفتها.. هل علمت بأمر عودتي؟ هل أخبرها صفوت بك؟ بالتأكيد صار يعلم بالأمر الآن، فهل أخبرها؟ هل لم يزل يضاجعها؟ هل سيسعدها سماع صوتي؟ هل ستبدي لهفة للقائي؟ للسكون فوق صدري؟ لاشتعال ليلة جديدة من لياليها التي لا تنسى، والتي منحتني فيها مقابل كل قرش أنفقته على الزواج منها؟! لكني في النهاية وضعت الهاتف في مكانه، وواصلت لعبتي المسرحية الجديدة؛ أنا لم أعد بدر القديم، رجل النظام، المخدوع في قوته وسطوته، والمخدوع حتى في رجولته.

قرب العاشرة مساء، استقللنا ميكروباص يتجه إلى القرية المنشودة.. حافظنا على تفرقنا؛ علي ركب بجوار السائق، وانحشرت مع ياسمين في مقعد خلفي بالسيارة البالية المزدحمة. الطريق كان غير ممهد في معظمه، وتهالك السيارة يجعل ارتجاجاتها منذرة بالموت في أية لحظة.. ياسمين تكاد تبكي خوفًا، لكن

نظراتها في وجوه الراكبين الموحية بالسكينة والهدوء تطمئنها لاعتيادية ما يجري، فتحاول أن تتماسك. وأنا أمارس دوري الأبوي المدعي، وأمسك بيدها مهدئًا، لكنها تسحب يدها من يدي.. اللعنة عليك أيتها الحمقاء. أنا رجل في عمر والدك أو أكبر، أيعقل أن تخافي مني؟ لكني أهدأ وأحاول أن أبتلع فكرة أني نفسي لا أصدق تلك الأفكار. فربما انتهازي لأية فرصة لملامسة ياسمين، ليس بالأمر البرئ والعفوي الذي أدعيه لنفسي!

في النهاية هبطنا في قلب القرية، فكان تجمعنا أخيرًا.. لم تفتني ملاحظة النظرات التي تسعى بين العاشقين وكأنما تتعانق، فيستفزني هذا.. أخرج من جيبي الخريطة، التي رسمتها لاتجاهات السير نحو موقع الدار، كما استكشفتها لنا ياسمين مسبقًا عن طريق موقع الخرائط على الإنترنت.. قطعنا ما بقي من شوارع القرية سيرًا على الأقدام، تقتحمنا النظرات الفضولية من الأهالي، القادرين على رصد أي غريب يأتي إلى قريتهم..



إحساس مقلق بأننا مراقبون اخترق جدار سلامي النفسي، وأكسبني تلك الرجفات القلبية المتلاحقة، التي صحبتني طوال الدقائق، التي احتجناها للخروج من زحام القرية إلى ظلام وبرد الحقول المتطرفة. الهدوء البكر هناك أعاد السلام النفسي، مع قدر ملائم من الصفاء، فاستعدت الحماس، ونحن نقطع طرقًا ترابية تخترق الحقول. مع كل خطوة كانت الرؤية تزداد عسرًا، والصمت يزداد تمزقًا بأصوات نباح الكلاب وحشرات الحقول، قبل أن يقتحمنا صوت نداء مألوف.. رفعنا الرؤوس إلى الأعلى، فرأينا حمزة يسبح في الهواء هابطًا نحونا. لم يكن ثمة ما يمكن أن يتمسك به ليحافظ على ارتفاعه، فمددت وعلي أربعة أذرع، نقبض بهم على كفي حمزة، كي لا يعاود الارتفاع بعيدًا عنا.

ـ "الدار قريبة من هنا.. في هذا الاتجاه".

قالها وأشار برأسه:

ـ "هل هو المكان المنشود؟".

ابتسم حمزة:

- "حقل شاسع للقمح.. وحين ارتفعت، بلغني وشيش البحر".

- "عظيم".

ياسمين اختارت لحظتها أن تلقي عنها ببعض توجساتها:

- "ولكن كيف سندخل الدار في هذه الساعة؟ هل سنطرق الباب ببساطة ونسألهم عن الشجرة؟".

أجبتها دون تفكر:

- "ربما!".

حمزة قال:

- "ما يجب أن تعرفوه أن الدار ليست صغيرة كما قيل لنا.. للدار فناء كبير، مزدحم بالناس، بين جالس ونائم".

تلقائيًا أطلقت سؤالًا سخيفًا:

- "من هم؟".

حمزة لم يستغرب سخافة السؤال، وأجاب جادًّا:

- "لا أعرف.. أنا لم أقترب لأتعرف عليهم أو أسمع أحاديثهم".

علي قال:

- "هل توجد أية علامة تدل على أن الشجرة موجودة هناك؟".

هز حمزة رأسه:

- "لا أستطيع أن أجزم بهذا.. باستثناء الفناء الممتلئ، تبدو دارًا عادية".

بعد تفكير، أطلقت القرار الحاسم:

- "سنكمل طريقنا كما اتفقنا.. ولتبق أنت فوقنا حتى نهاتفك".



قلتها وأفلتُّ يد حمزة، فأتبعني علي، ليرتد حمزة لأعلى حتى غاب في الظلام عن أنظارنا.. التفت، فواجهني القلق على وجه ياسمين:

- "كل شيء سيكون على ما يرام".

مرة أخرى مددت نحوها يدي أطلب يدها لمزيد من الطمأنة، فمدت يدها إلي في مصافحة سريعة، قبل أن تسحبها وتدسها في كف علي، وتلقي رأسها على كتفه لثوان، لتتلقي قدرًا من التشجيع! حسنًا، كان يجب أن أتوقع هذا.. لكني صرت مؤخرًا أتبع اندفاعات مزعجة لا إرادية. تمالك نفسك أيها العجوز. اجعل خبرة العمر المديد حاجزًا بينك وبين حماقات الشباب تلك.. ابتلعت ضيقي وانزعاجي، وواصلت الطريق، يتبعني الشابان متعانقي الكفين، حتى بانت لأعيننا أضواء الدار.. اقتربنا والقلوب تختنق بحماستها.

أمام الباب الحديدي توقفنا. قلت لتأريخ اللحظة:

- "الآن قد نكون على أعتاب الحقيقة".

قلتها ـ علها تصبح قولًا مأثورًا يروى عني بعد وفاتي ـ ثم ضغطت زر الجرس المجاور للباب.. لم ننتظر لأكثر من دقيقتين. فتح الباب على وجه مراهقة حسناء.. عندها تجمدنا جميعًا. حتى أنا، صاحب الخبرات الطويلة، أدركت لحظتها أني لا أملك ما يمكن أن أفتح به الحديث.. هل يعقل أن أسألها عن الشجرة؟ أم أن أطلب كبير الدار؟

الفتاة لم تترك لنا ما نحتاجه من الوقت لابتلاع التردد، أفسحت لنا طريقًا للدخول:

ـ "تفضلوا".

عبرنا الباب نحو الفناء.. تمامًا كما قال حمزة؛ العشرات بين ممدد وجالس على الحصر والوسائد المتناثرة، يتأملوننا.. الفتاة أغلقت الباب، ومرة أخرى بادرتنا باعتيادية:

ـ "استريحوا في أي مكان شئتم.. يمكنكم أن تناموا.. فأبي لن يقابل أحدًا حتى الصباح".



قالتها الفتاة وغادرتنا.. اجتازت الفناء حتى باب داخلي للدار، عبرته وأغلقته خلفها، وتركتنا على جمودنا، نتداول في العقول أسئلة، لم يجرؤ أحدنا بعد على المجاهرة بها؛ حتى قالت ياسمين:

- "ما معنى هذا؟".

كنت أملك جوابًا محتملاً، لكني خشيت البوح به دون يقين.. تأملت عيون الناس المتعلقة بنا، ثم انتقيت صاحب العينين الأقرب لموضعنا، كان عجوزًا جالسًا على الأرض لصقًا فيما بدت أنها زوجته. عندما التقت الأعين، ابتسم العجوزان بلطف، فتشجعت وسألته:

- "هل أنتما هنا من أجل الـ...".

توقفت عن الحديث؛ خشية أن أكون قد بحت بما لا يجب البوح به، ولكن ابتسامة الرجل اتسعت أكثر، وهو يجيب:

- "بلى.. كلنا كذلك.. كل هؤلاء أتوا إلى هنا من أجل رؤيتها".



***

الحكاية سمعتها من نادل عجوز في بار شعبي، والنادل سمعها من محامٍ شاب، قادم من الأرياف ليبني لنفسه مجدًا في العاصمة؛ لكنه فشل واكتشف كم هي مدينة قاسية بلا قلب، فباتت سلواه الوحيدة في جلسات البار يجتر فشله.. والمحامي الشاب سمعها من أبيه، يحكيها له منذ طفولته، وأبوه سمعها من أبيه.. وأبوه سمعها من فلاح من قرية بعيدة، جمعهما في شبابهما العمل في التراحيل.. والفلاح من القرية البعيدة سمعها من جدته، القادمة في شبابها من قرية أبعد.. والجدة تقسم أن أباها أخذها طفلة وزارا الشجرة، وأنها رأتها بعينيها، وكانت لم تزل نصف رجل، ونصف شجرة.

الحكاية قديمة ومتشعبة.. سافرت أزمانًا، وأماكن، فمن أين لي اليقين بأن مبتدأها ومنتهاها عندي أنا؟ ربما هو الغرور والكبر العالقان ـ وما يزالان ـ في روحي، منذ أزمان السلطة والقوة.. لكني الآن أواجه الحقيقة بوجهها العاري المستفز؛ فكما ألقت الصدفة في طريقي بحكاية مبهمة عن شجرة الحكمة، قد تكون ألقت في



طريق غيري بمشاهدات مؤكدة، ومعلومات موثقة عن مكانها.. الحكاية تطير في الأثير، فأي غرور جعلني أظن أني وحدي أسعى خلفها؟

تداول عقلي تلك الأفكار ـ مغلفة بشعور قاهر من الغيظ والخوف ـ في اللحظات التي سبقت النوم.

الغريب أني نمت نومًا عميقًا، رغم ازدحام المكان وقساوة الفراش الأرضي، وبرد الليل المفتوح على جسدي بلا ستار. ربما نال التعب مني، فلم يترك للجسد رفاهية الاعتراض.. قبل النوم، وفي مواجهة نظرات الفضول، كان عليّ أن أدعي أني الأب، وأن ياسمين وعلي هما الولدان؛ كي لا يتحول الفضول إلى ريبة، عندما تتلاصق أجساد ثلاثتنا في نومنا. ولمزيد من درء الشكوك، أقبلت بوجهي شطر ياسمين، واحتضنتها في نومها. حاولت أن تنسل من بين ذراعي، ولكني شددت الوثاق جيدًا على خصرها، وهمست في أذنها أن هذا أفضل لدعم الأدوار التي نلعبها. ربما في الحقيقة لم تكن دوافعي بالبراءة ذاتها التي أعلنتها.. وربما اللمسات لصدر ياسمين أثناء

نومها، لم تكن بالفعل غير مقصودة! الحقيقة أني ما عدت أعرف الحقيقة.. أتذكر زوجتي كثيرًا الآن.. هل ياسمين تذكرني بها؟ أم حرارة الرغبة التي تدب في عروقي - وتدفعني لتلك الاندفاعات الصبيانية مع ياسمين - هي التي تذكرني بها؟

في النهاية، غابت الأفكار، كما غاب المكان، والزمان، والبشر.. ورحلت إلى عالم آخر، كنت فيه أجالس صفوت بك إلى طاولة اجتماعات مستديرة، كندين متساويين، كما لم يحدث يومًا في الواقع، الذي كنت فيه دائمًا الطرف الأضعف، الذليل صاحب الحاجة.

- "هل أنت في حلمي؟ أم أنا الذي في حلمك؟".

سألت، فابتسم صفوت بك:

- "ربما نحن في حلم شخص ثالث، وربما نحن في منطقة وسطى في سرداب الألوان السبعة. ما همك بالجغرافيا في الحلم؟".

- "ماذا تريد مني؟".

- "السؤال هو: ماذا تريد أنت يا بدر؟ لماذا تراوغ نفسك وتوهمها بما ليس فيها؟ أنت منا يا بدر".

- "أنا لم أكن يومًا منكم".

- "أنت منا يا بدر".

- "أنت خنتني".

- "لأنك منا.. فما لك.. هو بالضرورة لنا".

- "حتى زوجتي؟!".

- "ما لك.. هو بالضرورة لنا".

لحظتها ارتفع بجوار صفوت بك كلب مجهول.. وضع قائمتيه الأماميتين فوق الطاولة، وزمجر في وجهي، محدقًا بعينين في حمرة الدم.. مسح صفوت بك على رأس كلبه:

- "اهدأ يا بني.. بدر منا".

- "أنا لا أخاف كلبك".

ـ "ولا تخاف سيفي.. لكنك تطمع في ذهبي".

نهضت ثائرًا، أطحت بالطاولة بعيدًا.. هاجمني الكلب، فصرعته بأسناني، ثم أشعلت النار في المكان لتحاصرنا بلهب ودخان أسود.. كنت كثور هائج، ما من قوة قادرة على إيقافي.. انقضضت على صفوت بك، الذي يتابع ما يجري بملامح مرسومة بلا شيء، فقط ابتسامة مختصرة بلا معنى. وقبل بلوغي مقتله، توقفت وهدأت ثورتي، أو أصابها عجز، فلم أدر ماذا أفعل بها.. فقط صرخت:

ـ "ماذا تريد مني؟"

ـ "أخبرني بمكانك وسأرسلهم لإحضارك".

ـ "لا شأن لك بي".

نهض صفوت بك.. تقدم نحوي مادًّا ذراعيه، ولكنه أبدًا لم يبلغني..

ـ "ألم تشتق لنا؟ لحياتك معنا؟ للشهرة؟ ألم تشتق لزوجتينا؟".

قالها صفوت بك وضحك، حتى انقلب على وجهه من شدة الضحك.. تلوى فوق الأرض، وجسده ينكمش، دون أن يتوقف عن الضحك.

ـ "أنت تثير اشمئزازي".

توقف صفوت بك، وجفف دموعه..

ـ "لكنك تحبني.. أنت تحبني يا بدر.. تحبني لأنك تعرف ما فعلته لك.. ومازلت قادرًا على فعله لك".

مد يده..

ـ "تعال يا بدر.. هناك الكثير من المجد، لم يزل في انتظارنا".

تجمدت، بفعل امتلاء الرأس بالأفكار غير المفهومة، والقلب بالمشاعر المتناقضة.. أتأمل اليد الممدودة؛ يدي كادت تتحرك، وكأنها مسكونة بإرادة خاصة؛ هل



كانت ستعانق يد صفوت بك في مصافحة استسلام؟ أم كانت ستضرب كفه الممدود في إعلان إباء؟ حتى أنا لم أدر ما نوع الحركة، ولن أدري أبدًا؛ لأنها لم تكتمل؛ إذ انقض حمزة لحظتها من السماء.. حملني من تحت إبطي وطار بي مبتعدًا، وهو يصرخ:

ـ "أنت ضعيف يا بدر.. ضعيف.. يا بدر".

فتحت عيني، فكانت ياسمين هي من أيقظتني. اعتدلت جالسًا، ورأسي مشوش، مفعم بعشرات الأفكار؛ هل حقًّا تسلل صفوت بك بنفسه إلى حلمي؟ هم يعرفون أني أتحرك في مسار مضاد، ويرغبون في استعادتي، أو على الأقل في معرفة ما أصبو إليه. الغريب أن هذا يسعدني بشكل ما، ويشعرني بانتشاء، كانتشاء الفخر؛ أنا لم أزل مهمًّا، ولم أزل قادرًا على التواجد في إطار الصورة. لكن أليس من المحتمل أن يكون الحلم ـ في النهاية ـ مجرد حلم؟ لا رسالة، ولاتواصل حقيقي وراءه.. ربما أنا فقط أحلم بما أتمناه. وماذا عن حمزة؟ أنا لا أفهم، هل اقتحم حمزة الحلم حقًّا، أم أني فقط حلمت به؟



لكن مسار الأفكار قطع بقول من ياسمين:

- "سيقابلنا بعد قليل".



الولد يحكي

أنا لم أحب بدر يومًا.. ربما تأثرت قليلا بمشاركته في إخراجي من محبسي، وحاولت صادقًا أن أنظر إليه بعين مختلفة، ربما أرى فيه زاوية مغايرة لتلك الملتصقة بصورة أبي، وصداقتهما القديمة.. لكنني سرعان ما استعدت الكراهية بعد مشاهدات مقلقة؛ شعره المصبوغ، وتجاعيد وجهه التي تختفي تدريجيًّا، وعودته للخمر، ثم تلك المشاهدات والملاحظات المقلقة عما يبدو لي كتحرش مستمر بياسمين؛ هل حقًّا لا يدع هذا العجوز فرصة دون أن يلامسها؟ أو يلاصق جسدها؟ أنا لم أتحدث مع ياسمين حول تلك الشكوك، وإن كنت أعتقد أنها تلاحظ بدورها وترتاب.. عندما تقابلنا في القرية، بعد أن قضت يومًا بكامله مع هذا الرجل ـ وأنا أتحرق بعيدًا عنها قلقًا وتوجسًا ـ انتهزت أول فرصة انفراد بعيدًا عن أسماع بدر، وسألتها عن يومها، وإن كان هناك ما ضايقها. أنا لم أصغ أية تفسيرات لموضع قلقي، ولكنها بدت لي وكأنها

تفهم تحديدًا ما أقصده، حين قبضت على كفي، وابتسمت في وجهي:

- "لا تقلق.. لقد كان كيوم عائلي حقيقي".

لكن هذا لم يذهب عني أشباح الظنون، ولم يقلص المسافات التي تتسع بيني وبين الرجل في كل ثانية نقضيها معًا، حتى صرت أنتبه في لحظات أن شرودي في وجهه طال، وربما نظراتي نحوه صارت تحمل غضبًا وحنقًا واضحين. مثل تلك اللحظة في فناء الدار، حين وضعت أمامه كوبًا به بضع تمرات مغموسة في الحليب..

- "لقد وزعوا هذا علينا للفطور".

ثم تراجعت جالسًا قبالته، وعيناي لا تفارقان وجهه، حتى تنبهت على نكزة من يد ياسمين، تنبهني لطول التحديق، أو ربما تنبهني لعمق الغضب البادي في النظرات، وهي تقول لبدر:

- "كثيرون قابلوه وخرجوا غاضبين".



شرب بدر ما في الكوب من حليب ـ ربما لم ينتبه لنظراتي، أو ربما اختار تجاهلها ـ ثم بدأ يلتقط التمرات بإصبعين ويلقيهما في فمه:

ـ "لماذا؟".

أجابته ياسمين:

ـ "يقولون إنه يبحث عمن يستحق لقاء الشجرة".

توقف بدر عن الأكل..

ـ "الشجرة موجودة إذًا!"

ابتسمت ياسمين، وأشارت إلى الدار:

ـ "وربما تكون بداخل هذا الدار.. هناك من يقولون إن الدار بنيت فوق الشجرة".

وضع بدر الكوب جانبًا دون أن ينهيه.. ربما سعادة الاقتراب أفقدته شهيته.. سألته:

- "كل هؤلاء الناس وصلوا لمكان الشجرة.. فكيف لم يعرف بمكانها أصحاب السلطة؟!".

بدا على وجه بدر توجس.. تأمل وجوه الناس المتناثرين من حولنا، غارقًا في أفكار لم يفصح لنا عنها بعد، ثم قال كمن بلغ حقيقة الأكوان:

- "التواطؤ!".

سألته ياسمين الإيضاح، فتابع:

- "الناس ما زالوا قادرين على التواطؤ! التواطؤ الصامت دون اتفاق أو عهود.. التواطؤ الذي يحمي سرهم الخاص ضد أية مراقبة، أو احتياطات أمن".

هز رأسه متعجبًا، مصدومًا..

- "سيصدم الأسياد كثيرًا عندما يعرفون".

تبادلت نظرة مع ياسمين، فوجدت في عينيها دهشة، وكأنما التقطت كذلك موضع الريبة في كلمات الرجل؛ أو تحديدًا في تهدج صوته لهفة، وهو يشكل الكلمات..

كدت ألقي تعليقًا، لولا أن جاءتنا الفتاة المراهقة التي فتحت لنا الباب ليلاً، قائلة باختصار:

ـ "أبي سيراكم الآن".

خفَّ الزحام في الفناء.. أخر من دخل لمقابلة الرجل كان شابًّا في سن صغيرة، خرج من باب الدار أمام أعيننا، وعلى وجهه مسارًا جافًّا للدموع، فأدركنا أن لا أحد، في هذا النهار، أقنع الرجل بجدارته للوقوف بين يدي الشجرة.

قادتنا الفتاة عبر باب الدار، إلى حجرة جانبية مفروشة بحصير، تتوسطه طبلية طعام خشبية، تربع أمامها رجل أربعيني في جلباب ريفي، عاقدًا كفيه فوق الطبلية، وكأنما يدعي أنه قاضي تحقيق جالس إلى مكتبه! لمزيد من معايشة الأجواء، أشار الرجل إلى الحصيرة عبر الطبلية أمامه، وقال:

ـ "تفضلوا بالجلوس".

لم يكن الأمر كما توقعته.. كل شيء يبدو عاديًا، بلا أية مؤثرات استثنائية. حجرة ريفية في منزل ريفي، ورجل ريفي لا شيء يميزه عن المئات، الذين كانوا يغسلوننا بأعينهم، طوال مسيرتنا في شوارع القرية ليلة أمس.

ولمزيد من زرع الاعتيادية في النفوس، قال الرجل للفتاة:

- "الشاي يا بنت".

فغادرت مغلقة الباب وراءها.. تربعنا على الأرض. الطرفان جذبا حبل الصمت، وكأنما كل طرف في انتظار مبادرة الطرف الآخر، حتى كاد حبل الصمت أن ينقطع، فقرر الرجل إرخاءه والبدء بالكلام:

- "لماذا أنتم هنا؟"

قال بدر:

- "كنت أظنك تعلم".

ابتسم الرجل:

ـ "أنا لا أعلم سوى ما تودون إخباري به".

بداية الرجل الحذرة تفصح بوضوح أنه ليس بالسهولة، التي يوحي بها مظهره البسيط.. هو بالفعل كما كنت أفكر؛ رجل اعتاد تلك الجلسة منذ سنوات، فبات يحفظ كل الألاعيب، وكل مراوغات الكلام.. رجل لا يدهشه شيء، ومن الصعب إبهاره.

ـ "نحن هنا لنرى الشجرة".

ـ "أية شجرة؟".

عقد بدر حاجبيه.. كان يفكر بعمق، وكأنما هي مباراة للشطرنج. كنت أتساءل عن الداعي للحيل الكلامية والمراوغات؛ كلنا هنا نعرف كل شيء، فلماذا عبث الموارة؟ لهذا اندفعت..

ـ "شجرة الحكمة.. ثلاثتنا هنا؛ لأننا نريد أن نتحاور في بعض الأمور مع شجرة الحكمة".



- "وماذا تعلمون عن شجرة الحكمة؟".

بكلمات سريعة أخبره بدر بما نعرفه عن الرجل الذي يتحول إلى شجرة.. في نهاية حكايته لم يعلق الرجل، وإنما أتاح لي هذا المساحة لكي أسأل:

- "هل حقًّا قتل والده؟".

لم يجب الرجل فورًا.. ابنته عادت لحظتها بأربعة أكواب من الشاي، وضعتها أمامنا على الطبلية وغادرت.. الرجل هو أول من مد يده لكوب الشاي. برغم السخونة، رشف نصفه على دفعة واحدة. حاولت أن أتخيل كم كوب من الشاي شربه هذا الرجل، منذ أن فتح عينيه من النوم! لم يمد أي منا يده إلى كوبه.. وكنت بانتظار أن يحسم الرجل أمره إن كان سيجيب السؤال أم لا. في النهاية، وبعد تنهيدة افتتاحية، أجاب:

- "كفِعلٍ، هذا هو ما حدث.. لكن ما وراء الفعل هو مصدر الأحكام العادلة".



الرجل بالفعل أوسع حكمة مما يبدو عليه، حتى أنني أتساءل الآن إن كان هذا الرجل هو نفسه الشجرة أم لا!

ـ "كيف؟".

ـ "الابن قتل أباه.. فعل يبدو قاسيًا بلا رحمة، حين صياغته في هذه الجملة الجافة.. ولكن بإضافة المسببات، والنتائج، تتضح لنا حقيقة الفعل".

نفد صبري بقدر ما..

ـ "هذه النقطة مفهومة..أنا أسألك عما بعد إضافة المسببات والنتائج".

ـ "يمكن اعتبارها نقطة تحول.. لحظة اندماج، لا لحظة موت.. هل تعلمون من هو الرجل، الذي يتحول إلى شجرة؟ هل هو الأب أم الابن؟".

لم يجبه أحد.. اختلسنا نظرات خاطفة لأعيننا، وكأنما يبحث كل منا عن اليقين في أعين زميليه.. فكان هذا

الصمت هو ـ تحديدًا ـ الإجابة التي ينتظرها الرجل ليقول:

ـ "بالضبط.. ما حدث هو اندماج الأب بالابن بطين الأرض، فكانت الشجرة.. روح الشجرة ليست روح الابن كما يظن الناس، ولا حتى روح الأب، بل إنها روحاهما معًا.. هكذا تتم الأمور منذ قديم الأزل، فقط في حالتهما تم تجسيد الأمر في شكل هذه الجريمة، ليكتمل للناس الفهم، إن كانوا قادرين على الفهم".

بدر تساءل:

ـ "وما موقعك أنت من هذه العلاقة؟".

ـ "أنا أحد أحفاد الأحفاد.. وحارس الحكمة، إن شئتم أن تسموني هكذا.. مهمتي أن أضمن ألا يدخل إلى الشجرة، إلا من يستحق".

ياسمين تساءلت:

ـ "وكيف تحدد من يستحق، ومن لا يستحق؟".

ابتسم الرجل:

ـ "هذا ما سنتحدث فيه الآن.. ليحدثني كل منكم بحكايته دونما أكاذيب، وبسبب رغبته في لقائها".

كان بدر يبحث عن طرف الكذبة، حين قال:

ـ "نحن أسرة.. أنا الأب، وهما...".

لكن الرجل كان يبحث عن جسد الحقيقة حين قاطعه:

ـ "قلت: بلا أكاذيب.. أنا لن أصدق أنهما ولداك، كما قلت للناس ليلة أمس.. فأنا أعلم من أعينهما أنهما عاشقان".

ابتسم بدر..

ـ "صدقني أنا لم أكن أنوي الكذب.. أنا فقط كنت أختبر قدرتك على تبين الحقيقة.. فكما عليك أن تتأكد من جدارتنا للقاء الشجرة.. أردت كذلك أن أتأكد من جدارتك للاطلاع على حقيقتنا".

ضحك الرجل، فكانت ضحكته جميلة صافية:

- "أنت رجل ذكي.. وأظن الحقيقة وراءك ستكون ممتعة، كما يليق برجل ذكي".

ابتسم بدر مجاملة، في حين كنت أتساءل إن كان في قول الرجل مديح لبدر، أم سخرية؟ بدأ بدر يحكي. حكى عن كل شيء، أيام النضال في الجامعة، رحلته من مواجهتهم إلى صفوفهم، ثم رحلته في الاتجاه المعاكس.. حكى عن زوجته وخيانتها، وأيام الحبس الاختياري. حدثه عن أزمة الهوية، وافتقاده للقدرة على تمييز جانب ولائه.. تحدث صراحة عن نفسه التي تراوده أحيانًا بالعودة إلى أحضان الأسياد، ومحاولة إقامة ما نقض من عالمه القديم المريح.. كلماته منحتني ضوء اليقين، فقد كانت شكوكي في محلها؛ هذا رجل ما كان يجب أن نأمن جانبه.

وعندما حان دوري حكيت عن أبي وقسوته، عن أمي وجنونها ونهايتها، وشكوكي في الدور الحقيقي الذي لعبه والدي في بلوغها تلك النهاية.. حكيت بجرأة عن

علاقتي بياسمين، وعن أيام السجن. لم أخش أن أصرح له بحقيقة أن لا حاجة ملحة لي في لقاء الشجرة، ولكني الآن أعتقد أن لقاءها، قد يكون أفضل ما حدث لي طيلة حياتي المهمَّشة.

ياسمين حكت عن توترعلاقتها بوالدها، والذي اكتشفت مؤخرًا أنه في حقيقته توتر في علاقتها بذاتها.. حكت عن علاقاتها المتعددة ومحاولات التمرد الصبيانية.. حكت حتى عن مخططها الفاشل للهروب معي، وهو المخطط الذي أعلم به الآن للمرة الأولى! أخبرتِ الرجل أن نقص فهمها لدوافعها، وعدم قدرتها على خلق رؤية مقنعة لمستقبلها، هما سبب رغبتها في لقاء الشجرة.. الغريب، أنها نسيت أن تخبره عن الطفلين المفقودين!

الرجل استمع إلينا في صمت وصبر.. ابتسامة خفيفة ارتسمت على وجهه منذ أول حرف، حتى أخر حرف نُطق في حضرته، فاستعصى عليّ استكشاف ما يجول بذهنه.



في النهاية، تنهد الرجل معلنًا قدوم لحظة إصدار الحكم:

- "أزماتكم داخلية.. فلماذا تعتقدون أن حلها عند الشجرة، وليس عند ذواتكم؟".

بدا لي سؤاله وكأنما نوع من المراوغة، حاول بدر إفسادها بقول:

- "لو كنا تمكنا من إيجاد الحلول، لما عانينا مشقة هذه الرحلة".

- "وهل تعتقد أنكم بذلتم ما يكفي من الجهد لمواجهة تساؤلاتكم دون معين؟ هل تريد أن تخبرني أنك حقًّا لا تدري إن كنت بدر رجل السلطة، أم بدر المعارض؟ إن كنت لا تستطيع أن تحسم اتجاهاتك، فكيف تعتقد أن طرفًا خارجيًا يمكن أن يحسمها لك؟!"

ارتبك بدر أمام الهجوم المفاجئ.. تلقائيًا، اتجه نظره نحونا، وكأنما يرجو مني وياسمين عونًا ما:

ـ "في الحقيقة أنا...".

قاطعه الرجل:

ـ "في الحقيقة أن لي سنوات منذ أن تسلمت تلك المسئولية، وطوال تلك السنوات، لم أسمح لأحد بمقابلتها.. أتدري لم؟ لأن جميعهم أتوا إلى هنا، وهم لا يحتاجونها بالفعل.. جاءوا متواكلين أو متهاونين في حق أنفسهم".

ياسمين قالت:

ـ "لكن نحن...".

فقاطعها، مؤكدًا أن مرحلة الحسم قد حانت:

ـ "أنتم لا تختلفون عنهم.. آسف، لن أسمح لكم بمقابلتها".

لحظتها قلت:

ـ "ولكننا بالفعل مختلفون.. وبإمكاني أن أثبت لك".

ابتسم الرجل:

ـ "تفضل".

ألتفتُ إلى بدر، لأصيغ خطتي في كلمة واحدة:

ـ "حمزة".

أشرق وجه بدر.. مد يدًا متلهفة إلى الرجل:

ـ "هل لي أن أستخدم هاتفك لدقيقة؟".

***

الفتى يحكي

لكنها يا أبي ليست كأرض العجائب التي أحلم بها.. هنا ليس أكثر من سماء وأرض خضراء ونهر. عند منتهاه بحر بعيد الأفق.. لكني رغم هذا سعيد؛ غلاف من حرية ـ بلا طعم أو رائحة أو كثافة ـ يحيطني.. يرفعني على أجنحة الهواء خفيفًا، فأحلق لأبعاد ما بلغتها من قبل، حتى أظن أني قاربت الشمس. لكن ضغط الهواء يصدني، ويضغط صدري، فأعود لأغوص في طبقات الهواء السفلى؛ حيث أنفاس البشر تصدني، وتضغط صدري! فأنطلق في ضوء النهار ـ غير مبالٍ بانكشاف أمري ـ متبعًا صرخات النوارس، حتى أبلغ البحر، وأجتاز حدوده محلقًا فوق الزرقة المحببة..

تحيط بي النوارس، في سعيها وراء رزق الصباح.. أصادق تلك الكائنات الساحرة؛ تعلمني كيف تضم الجناحين، وتنطلق كالرصاصة إلى سطح الماء. أحاول أن أقلدها، لكن مخاصمة جسدي للجاذبية تمنعني من محاكاة سرعة الطيور البيضاء. أرحل معها إلى

أعشاشها وسط تجمعات الصخور القريبة. حيث الصغار، والبيوض الداكنة في أعشاش من أعشاب البحر. كل شيء هنا له رائحة الحرية، وحتى ضجيج النوارس يبدو لي كهتافات احتفاء بالحرية.. هذه ليست أرض العجائب التي أحلم بها يا أبي، ولكنني سعيد.

انتهت الحالة حين رن الهاتف في جيبي.. كنت ألتقط أنفاسي مشتبكًا بين أغصان الأشجار الكثيفة في الحقول، حين أخرجت الهاتف من جيبي وأجبت الطالب. كان بدر يخبرني أن أحضر حالًا إلى فناء الدار. انهيت المكالمة وأنا أفكر جديًا في عصيانه. لماذا أهتم؟ بدر وعلي وياسمين.. من منهم يهتم بي حقًّا؟ من منهم خلق في عقلي يقينًا بأنه ليس من أصحاب العقول القاصرة؟ ليذهبوا إلى الجحيم. أنا نورس؛ دعوني أبني عشًّا من أعشاب البحر، وألتقط الأسماك بفمي في اندفاعة ربانية، مِن فوهة بندقية خفية في السماء. لكن إحساسًا مقلقًا كتحمل المسئولية، يجبرني

على الخروج من تلك الحالة، ونفض أحلام النهار عن عقلي، والتحليق حتى مكان الدار.

الفناء كان نصف ممتلئًا بالناس.. ليس في تعداد من باتوا ليلتهم هناك، ولكنه تعداد كاف لكي يكسب تحليقي فوق رؤوسهم حالة من الحماسة القدسية. بينهم كان بدر وعلي وياسمين، ملتفين حول رجل ريفي له مهابة واضحة. الشمس صارت في منتصف السماء، أحرقت أعينهم الممدودة نحوي، فصنعوا بكفوفهم المفرودة مظلات.. اقتربت منهم قادمًا من الشمس. حطَّ ظلي فوق رؤوسهم ليبرد احتراق أعينهم، ففتح القروي المهيب فمه ذهولًا، وابتسم بدر بسعادة، وانطلقت التكبيرات من أفواه الناس، ومنهم من أخرج هاتفه، ليسجل اللحظة.

نظر القروي المهيب حوله، ثم قال لبدر:

- "يجب أن نعود إلى الداخل حالًا".

بدر تساءل:

- "والشجرة؟".

قال الرجل، وهو يقطع أول خطوة نحو باب الدار:

- "ربما تقابلونها".

***

عاد الأربعة مرة أخرى إلى الحجرة الداخلية.. هذه المرة تبعتهم سابحًا في فضاء الدار، حتى تلك الحجرة التي تتوسطها طبلية، عليها أكواب شاي لم تشرب بعد، فأدركت أن هنا مكان اجتماعهم.. أشار إليهم القروي المهيب بالجلوس، فجلسوا، وارتفعت أنا حتى لاصق ظهري السقف، فتمطيت، واستكنت أتأملهم. عينا الرجل ظلت تتابعاني قبل أن يتحدث:

- "كما أن لديكم أسطورة عن الشجرة.. الشجرة كذلك لديها أسطورة عن رجال طائرين.. أولئك فقط المسموح لهم بمقابلتها.. إضافة إلى من تناديهم الشجرة".

قال بدر:



ـ "وكيف تناديهم؟"

ـ "للشجرة طريقتها.. لكن أولئك المنادين تكون لهم مواصفات خاصة.. ستعرفونها في حضرتها.. أما الرجال الطائرون، فلهم الحق دائمًا في مجالستها. عن نفسي، هذا هو أول رجل طائر أراه. بقي فقط أن أحذركم.. الشجرة لا تمنح إجابات أو إرشادات طريق.. الشجرة تمنح حكمة.. والحكمة تحتاج إلى حكمة لتلقيها".

بنفاد صبر، قال بدر:

ـ "ونحن لها.. فلا تقلق".

هز الرجل رأسه، وكأنما في يأس:

ـ "أنا لست قلقًا.. بل يجب أن تقلقوا أنتم، وإلا فلن تلتقطوا الحكمة".

قالها، ورفع البصر نحوي، وكأنما ينتظر مني عونًا ما، فشئت ألا أخذله:

ـ "للشجرة علينا السمع والفهم والإجابة ما استطعنا".

ابتسم الرجل معلنًا رضاه عن هذه الإجابة، قبل أن يلقي بأهم ما في جعبته:

ـ "لكني قلت لكم إن الرجال الطائرين فقط هم المسموح لهم بلقائها".

صمت، فنهض بدر واقفًا.. كان منفعلا، فتح فمه، ثم أغلقه دون أن ينطق.. كنت أفهم ما به، وكانت لحظة تحمل مساحة للتعاطف، فلم أتساءل عن هوية بدر، فأيًّا كانت، فهو يمر بصدمة حقيقية، ولحظة خوف تستحق الإشفاق؛ لهذا أردت احتواء الموقف:

ـ "لكنهم معي.. نحن قطعنا هذه الرحلة معًا، فكيف يعقل هذا؟".

ابتسم الرجل:

ـ "لك الحق في أن تأخذهم معك للقاء".

هدأ توتر بدر الجسدي، وسأل للتيقن:

ـ "هذا يعني أننا سنقابلها؟".

أشار الرجل إليَّ:

ـ "إن شاء هو".

ضحك بدر:

ـ "بالطبع سيشاء.. ألم يخبرك للتو أننا قطعنا الرحلة معًا؟".

ـ "بلى فعل.. لكن من واجبي أن أوضح له أمرًا".

رفع الرجل وجهه نحوي:

ـ "إن دخلت وحدك، فهذا يعني أن الشجرة ستحادثك.. أما إن تخيرت أن يدخلوا معك، فستقيِّمهم الشجرة أولًا، وإن وجدت أنهم ليسوا جديرين بحضرتها، فلن تتكلم قط.. لا معك، ولا مع غيرك.. وستضيع عليك الفرصة".



- "ماذا تقول يا رجل؟ أي حمل ثقيل تلقيه على كاهلي؟ ثلاثة أزواج من العيون لثلاثة رفاق، تحدق بي الآن، بين رجاء وعدم استيعاب. فهل أنا أهل لهذا الرجاء؟".

القروي المهيب يضيف وكأنما يزيد الأمر سوءًا:

- "القرار في يديك.. ويجب أن تتخذه بحكمة.. وإلا فقدت رحلتك جدواها في شوطها الأخير".

ماذا ستفعل أيها الفتى الطائر؟ أيها الفتى الأعرج سابقًا؟! الامتحان صعب، فهل أنا أهل لهذا الابتلاء؟ لقد عشت عمري أصنف كل من هو سواي في تصنيف أصحاب العقول القاصرة؛ فلماذا أنكر هذا التصنيف الآن؟ أية صداقة أو معاناة مشتركة تلك، التي تجعلني أصطحب معي ثلاثة من أصحاب العقول القاصرة إلى محراب الحكمة؟! لأرمِ المشاعر في الجحيم، وأستخدم عقلي.. اليقين مفقود، ولا جدارة لهم، فلماذا الحيرة؟!

- "هل يمكن أن تتركنا وحدنا قليلًا؟".

سألته، فأجابني:

ـ "بداية حكيمة، أرجو أن تستمر هكذا".

قالها القروي المهيب، وكأنما يقرأ ما في ذهني، ثم غادر الحجرة، وأغلق الباب وراءه على صمت تام. تحركت في فضاء الحجرة متمهلًا كنسيم خفيف، وأنا أتحاشى النظرات.. بدر كان يضرب راحة يمناه في قبضة يسراه، منتظرًا مبادرة مني.. لكني حين نطقت، كنت كمن يبحث عن مساعدة:

ـ "ماذا أفعل الآن؟"

سابق علي الآخرين بقوله:

ـ "افعل ما يمليه عليك عقلك.. أنا أثق في حكمتك يا حمزة".

ابتسمت، وقلت بصدق أذهلني:

ـ "وأنا أثق أنك تستحق لقاءها".

أخرجت الكلمة "بدر"عن صمته، ففجر ثورته في وجهي:

ـ "ماذا تعني؟! هل ستختار؟ هل تعتقد أن بإمكانك أن تختار من منا يقابلها ومن لا يفعل؟ لقد جئنا إلى هنا معًا.. لا.. بل أنا من أحضرتكم إلى هنا.. لو كان هناك شخص واحد منا له الحق في لقائها، فهو أنا".

حاول علي مجاراة بدر في حدته:

ـ "حمزة لم يسع إلى شيء، ولم يصنع هذا الموقف.. وإن كان سيختار من منا يذهب معه لملاقاتها، فهو موقف محمود منه.. لأنه ببساطة يستطيع لقاءها وحده، دون أن يقامر بوجودنا معه".

ـ "هراء.. لا أحد سيمنعني من لقائها".

لا إراديًا، تحركت يده نحو مخبأ المسدس.. تابعت حركته، انتبه بدر لفعلته التلقائية فأوقف يده.. لحظتها قلت بهدوء، وكأنما لا يعنيني اشتعال الموقف:

ـ "لماذا تتحدث وكأنني لن أختارك؟".

تجمدت ملامحه على تعبير يعني الصدمة والتفكير.. لقد كان يفكر فيما قلته، مصدومًا من صحته، ولهذا لم أترفق به:

ـ "إلا إذا كنت تعتقد بداخلك أنك غير جدير بلقائها".

قلتها بابتسامة بدت مستفزة، وربما هي ما دفع بدر لملامسة انتفاخ جيبه، وبروز المسدس، وكأنما يقتبس الجرأة من حضوره، قبل أن يقول:

ـ "لقد كنت في حلمي بالأمس.. كنت تراقب حلمي".

قالها بدر لكشف الأوراق.. فقررت أن أجاريه، ولا أفسد أوان المصارحة:

ـ "لقد أنقذتك من نفسك في هذا الحلم".

تضاعفت ثورة بدر:

- "كيف تجرؤ؟! أنا من علمتك كيف تفعلها، فتستخدمها ضدي؟!".

ياسمين تدخلت لحظتها نافدة الصبر:

- "ربما من حقنا أن نفهم عما تتحدثان".

صمت بدر، وصمتُّ كذلك، وإن لم ينقطع امتداد النظرات بيننا.. في النهاية، قرر بدر أن يهدأ، ربما بشكل تكتيكي، فقط ليحاول محاصرتي في ركن الإحراج.. أبعد يده عن الجيب، عقد ذراعيه:

- "وأنا كذلك أريد أن أفهم.. لماذا تعاملني بكل هذا الشك
يا بني؟".

ابتسمت، لأعلن له أني لم أبتلع الطعم الساذج، ثم قلت:

- "في يوم بعيد، كتبت سؤالاً في ورقة صغيرة، بغرض توجيهه لك في إحدى الندوات.. هذا السؤال لم يصلك

أبدًا.. الآن سأسأله لك.. وبحسب إجابتك، سأحدد إن كنت ستلاقي الشجرة معي أم لا".

فيما بدا محاولة يائسة للثورة، صاح بدر:

- "أنا لن أسمح...".

فقاطعته:

- "أنت لست في وضع يتيح لك أن تسمح أو لا تسمح.. هذه هي القواعد.. إما أن تتبعها، فتكون لديك الفرصة.. أو تغادر الآن بخيبتك".

من أين لي بكل هذا الحزم؟! ربما التحرر من الأثقال التي عشت بها أعوامًا، هو ما دفعني إلى هذا التحول.. أنا الآن شخص آخر، أكثر ثقة، أكثر حكمة، وحسمًا.. والأهم يا أبي، أني أحب نفسي الجديدة إلى حد العشق.

- "اسأل".

قالها بدر مستسلمًا..

ـ "أتظن أن حياتك الثانية كمدافع عن ظلم الظالمين.. كانت أكثر حرية من حياتك الأولى ـ كمناضل ـ في سجون القمع؟".

محتدًّا قال بدر:

ـ "أنا لا أفهم السؤال".

ابتسمت معربًا عن شفقة حقيقية:

ـ "أنت إذًا أكثر بؤسًا مما اعتقدت".

ـ "انتبه لألفاظك".

قرر علي التدخل لنصرة صديقه:

ـ "أنت لم تجب عن السؤال بعد".

ـ "أنا لا أفهم السؤال أصلًا".

قلت لعلي:

ـ "افتح الباب وناد مضيفنا؛ لقد اتخذت قراري".



صرخ بدر:

ـ "أنا أحذرك يا حمزة.. السلطة ليست بعيدة عني.. بإمكاني استعادتها، وحينها ستندم".

ـ "الأمر بسيط يا أستاذ بدر.. تأمله في هدوء، وستدرك أني محق.. الحقيقة أنك لم تعد بحاجة لملاقاة الشجرة.. فأنت الآن تعرف بشكل مثالي من أنت".

عاد القروي المهيب إلى الحجرة، فبادرته:

ـ "نحن جاهزون".

ـ "هل سيذهبون معك؟".

ـ "فقط علي وياسمين".

ياسمين قالت:

ـ "هل أنت متأكد أنك تريدني معكما؟".

ـ "بالطبع.. أنا واثق من جدارتك".



قال القروي المهيب:

ـ "في حضرة الشجرة، يجب أن تنقطعوا عن الدنيا.. تنقطعوا حتى عن بعضكم البعض.. لا هواتف.. لا حوارات جانبية".

أخرجت الهاتف من جيبي.. ناولته للرجل، الذي وضعه على الطبلية قائلًا:

ـ "هذا سينتظرك هنا".

ثم وجه إلى بدر حديثًا:

ـ "كذلك يمكنك الانتظار هنا.. أنت ضيفنا، ولك كل حقوق الضيافة".

لم ينطق بدر، فقد كان لم يزل يحاول استيعاب صدمته.. أما القروي المهيب، فنظر إلى ثلاثتنا، وقال بابتسامة واسعة:

ـ "هيا بنا".



الشجرة

الولد يحكي

الشجرة لا تثمر أوراقًا.. الأغصان يابسة، من خشب قوي ثخين، تتشعب في فضاء، صمم ليسعها في قاعة تعلو جدرانها نوافذ كبيرة، ترسل ضوء الشمس لمعانقتها، وأرض من طين جاف، تضرب الشجرة فيه جذورها تحت الأرض، لتحمل الدار ومن فيه.. أمام الشجرة، يجلس الطفلان ـ نوح وجودي ـ متشابكي الأيدي، في انتظار أن يأتي دورهما حين تأذن الشجرة ببدء زمانهما، أو يعودان في انتظار بداية جديدة لحفيدين قادمين.

حين الدخول، لم ينتبه للطفلين سوى ياسمين. حضورهما طغى عندها على حضور الشجرة، فصرخت دهشة، وانقضت تحتضنهما وتقبلهما، وسط دهشتهما.. المشهد أخذ عيني ودهشتي لقليل من الوقت، قبل أن أتجاهله لثقل مهابة الحضور.. حمزة لم يبال، وكأنه

كان يتوقع هذا. فقط اكتفى بابتسامة، قد تعني سعادته بالعثور على الطفلة أخيرًا.

الرجل تقدمنا نحو الشجرة.. توقفتُ على مقربة من الباب.. ياسمين بقيت بجوار الطفلين على الأرض تلفهما بذراعيها.. وحمزة سبح خفيفًا جريئًا حول الشجرة، حتى رآه.. الجسد المحني بات بعد الأزمان كنحت سطحي قليل الغور في لحاء الشجرة.. كان الجسد ضئيلاً، تماهت معظم تفاصيله في تعاريج، وتجاعيد الشجرة، ولم يعد جليًّا منه سوى عينين ذابلتين، وفم خشبي تآكلت أطرافه، لكنه لم يزل قادرًا على إصدار صوت عميق متهدج:

- "أخيرًا يا حمزة".

قالتها الشجرة، فتوقف صاحب الدار وابتسم، مدركًا أن دوره هنا قد انتهى، فغادر القاعة وأغلق بابها خلفه.. سبح حمزة حتى بلغ موضع الوجه. هبط عندها، حتى لامس تراب الأرض.. الدهشة تضربني مرة أخرى في هذا الوقت القصير، فأتساءل عن جدوى الدهشة في



محراب الحكمة! حمزة بدا سعيدًا وهو يجرب هذا الشعور لأول مرة منذ أزمان، ملامسة الأرض بثقل الجسد، وبقدم عارية.. وكطفل يتعلم السير، قطع خطوة مضطربة للأمام وتوقف:

ـ "أنت تعرفني؟!".

ـ "وأنتظرك كذلك".

ـ "لقد أحضرت معي صديقين".

أشار حمزة نحوي فتقدمت متشجعًا لمحاذاة موضعه.. كنت أكثر ثقة الآن، فقد تحدثت الشجرة، وهو ما كان ليحدث لو كنت أنا وياسمين ـ أو أحدنا ـ غير جديرين بلقائها.

ـ "ولماذا يا حمزة المغامرة؟ لماذا لم تأتني وحدك؟".

ـ "هما صاحباي.. وأنا أعرف أنهما يستحقان حضرتك".

ـ "ليس في كل جمع قوة يا حمزة.. وليس في كل تشتت ضعف".



- "هما صاحباي ورفيقا رحلتي.. فأذَن لنا بالبقاء حتى نرتوي".

- "علي لا حاجة له بي.. جواب حيرته الخوف.. ودواء الخوف في قلبه.. سيجده إذا اهتدى عقله".

كلمات كثيرة، متشابهة، ومعقدة، ولكني أفهمها، وهو ما لا أفهمه! لقد فهمتها بقلبي، لا بعقلي. إنه الخوف حقًّا، لقد تربيت في مهد من خوف، وربما حتى خلقت من طين مخلوط بالخوف.. ولكن كيف يشفي العقل وخزات القلب؟ سألت الشجرة:

- "وكيف يهتدي عقلي؟".

- "ستعرف يا علي".

حمزة أشار إلى ياسمين:

- "وماذا عنها؟".

- "ياسمين وجدت ضالتها".



حمزة سأل:

ـ "الطفلان؟".

ـ "كلا.. الطفلان لم يكونا يومًا ضالتها".

ياسمين نهضت، نفضت التراب عن موضع جلوسها، وتقدمت منّا..

ـ "وما ضالتي؟".

ـ "ذاتك يا ياسمين.. هنا تجدينها".

حمزة سأل:

ـ "وأنا؟"

ـ "وما معضلتك؟"

فكر حمزة قليلاً.. تغير وجهه، رسمت الدهشة ملامحه، وكأنما اكتشف لحظتها عجزًا عن الإجابة، وهو ما عبر عنه بالكلمات:

- "لا أعرف.. أنا الآن في أفضل حال.. لقد كان شفائي في الرحلة".

- "هذا لأنك قوي يا حمزة".

قلت:

- "الرجل إذًا صدق؛ نحن لا حاجة لنا بالشجرة".

- "الحقيقة أنها أنا من لي حاجة بكم.. أنا من انتظرتكم طويلًا".

ياسمين تساءلت:

- "هل نحن من المنادين؟".

- "كلا.. وإلا كنت ناديتكم منذ زمن، وما تكبدت عناء الانتظار".

أشار حمزة إلى الطفلين:

- "هما من المنادين.. أليس كذلك؟".

- "هو كذلك يا حمزة.. كالكثيرين من قبلهما.. لكن لا أحد قبل اليوم بلغ المنال؛ لأنكم لم تكونوا قد ظهرتم بعد.. الآن بوجود خمستكم، كل شيء معد للتحول".

سألت:

- "أي تحول؟".

حمزة تساءل بلهجة من يحمل اليقين، لا من يحمل الحيرة..

- "سيكتمل تحولك إلى شجرة؟".

- "الليلة يا حمزة.. الليلة سينزرع الطفلان مكاني.. ربما صارا شجرة.. أو شجرتين.. أو جنة كاملة".

نظر حمزة إلى الطفلين.. كانا قد عادا إلى التشابك، أنظارهما تواجهنا، صامتين عن النطق وعن تعابير الوجه.. حمزة أعاد نظراته إلى الشجرة حاملاً فهمًا جديدًا..

- "هل هذا يعني أنهما استكملا شروط التحول؟".

لم تجب الشجرة فورًا.. حدود الفم المتماهية تمددت ببطء، حتى رسمت ما يشبه ابتسامة..

- "إنه أنت بالفعل.. أنت من انتظرته طويلًا.. حكمتك تؤكد هذا".

ولكني لم أفهم ما رمى إليه حمزة، وما التقطته الشجرة في كلماته.. كذلك ياسمين لم تفهم، فكانت المبادرة بالقول:

- "أنا لا أفهم عما تتحدثان!".

حمزة أجابها:

- "لقد قتلا جديهما".

- "أهذا حقيقي؟!".

إنه الجنون يا ياسمين فلا يدهشنك شيء.. لا شيء هنا يأخذ الشكل المتعارف عليه في الخارج. لا القتل هنا يعني القتل، ولا الوحشية هنا تعني الوحشية.. الأمور معكوسة، والمعاني متضاربة. إنه جنون روحي،

يغيب العقل، ولكنه يستدعي امتلاء القلب.. وحتى الحكمة يا ياسمين، هنا لا تعني الحكمة. ليست تلك الكلمة ذات الهالة النورانية، كما تتداولها ألسنة الناس خارج هذا المكان. هنا الحكمة هواء نتنفسه، وطمي أرض نطأه. حتى أنا أشعر بتغلغلها في روحي، فما عاد يدهشني شيء. فافتحي مسام روحك للحكمة يا ياسمين، أو أنصتي لكلمات الشجرة..

ـ "هذا ما يحدث منذ خلق الكون؛ لا حياة آتية، دون أنقاض حياة ماضية.. هذا ما أخبرت به الولدين في النداء.. كما أخبرت به جديهما في نداء قديم.. لكل دوره، وكل يعرف أوانه."

ـ "المنادون إذًا من نسل متواصل؟".

سأل حمزة، فأُجيب:

ـ "كل طفلين أتيا ولم يحن الأوان، ذهبا ليعودا بعد أعوام كجزء من حفيدين لهما".

ـ "والأحفاد يقتلون الأجداد".

هكذا استنتج حمزة، فقالت ياسمين متمسكة بواقع بعيد عنا، خلف هذا الباب المغلق الذي دخلنا منه:

ـ "لكن هذه قسوة".

ـ "لا جنة دون نار".

صمتنا، وكل منا ـ كما بدا ـ يدور حول ما سمعناه هنا.. يحاول إيلاج المعلومات في عقله؛ ليقنع نفسه أن ما سمعه ـ بالفعل ـ حقائق واقعة.

في النهاية، قلت:

ـ "قلت إنك تحتاجنا.. كيف؟".

ـ "حضوركم هو إشارة التحول الجديد.. الليلة سأصبح شجرة صماء.. شجرة بلا ثمر، بلا نفع سوى كوقود للنار.. كل ما أرجوه هو بداية جديدة، ولو جزئية. فاقطعوا مني غصنًا، وازرعوه مع الولدين".

الفكرة كانت لم تزل عصية على الانزلاق عبر عقل ياسمين، فقالت:



- "وكيف سنزرعهما؟".

- "هما يعرفان كل شيء.. ومهيئان لكل شيء".

لحظتها تذكرت أمرًا، فسألت:

- "هل من المصادفة أن يكون اسماهما نوح وجودي؟".

- "لا شيء يحدث في هذا الكون مصادفة.. لقد أعدا لهذا اليوم، قبل حتى أن يولدا".

حمزة أظهر عدم قناعته:

- "أهذا كل شيء؟ أن نساعد الولدين فيما يعلمان عنه أكثر منا؟!".

- "علي وياسمين هما من سيساعدان الولدين. لأنهما مثلهما، عاشقان، وطوقا نجاة لبعضهما، ومنتهى المطاف لرحلتيهما".

غريب أن أسمع هذا التلخيص الشاعري الوافي لما في صدري.. قلبي ارتجف للحظة.. الموقف مهيب، وكأن

قلبي هو الواقف أمامي يحدثني. نظرت إلى ياسمين، فوجدت في عينيها بريق نظرة استكشاف، وكأنما تنظرني للمرة الأولى. وكذلك أنا كنت كمن يراها بعين جديدة. الأمر غير متعلق الآن بعلاقة جسدين، أو مشاعر حسية، أو احتياج لإشباع نواقص في رؤيتنا لذواتنا.. الأمر الآن حقيقي تمامًا. يقين الأرواح هو ما يربط نظراتنا ببعضنا، ويوحد على وجهينا ابتسامة انتشاء، ويجمع كفينا في معانقة صافية.

- "وماذا عني؟".

سأل حمزة، فأجابت الشجرة:

- "لك مهمة أخرى يا حمزة؛ ستعرفها في حينها".

- "كيف سأعرفها إن لم تدلني".

- "ستعرفها.. فقط تذكر يا بني أن لا جنة دون نار.. ولا نار دون حطب..".

أكمل حمزة:



- "ولا حطب دون شجرة قوية الأغصان مثلك".

- "ومثلك أنت كذلك يا حمزة".

أطرق حمزة رأسه.. عبث في التراب بأطراف أصابع قدمه العارية..

- "ربما هي إذًا أخر ملامسة لي للأرض".

- "هل يحزنك هذا؟"

- "بالعكس.. أنا لم أخلق للسير على الأرض".

لحظتها.. فتح باب القاعة، ودخل صاحب الدار.. سار بهدوء حتى بلغنا، اعتاد أن يتحدث في حضرة الشجرة بصوت منخفض، مهما كان ما يحمله من كلمات.. كانت كلماته موجهة إلى حمزة:

- "لقد رحل رفيقك.. لكن قبل رحيله أجرى اتصالًا من هاتفك.. وأعتقد من أطراف الكلمات التي بلغت أذني، أنه اتصل بالشرطة".



حمزة قال موضحًا:

- "علي وياسمين هاربان منهم، وربما سعوا إليهما".

قالت الشجرة:

- "لا يا حمزة.. إنهم يسعون نحوي.. أنا الفريسة الأكبر".

قلت بهدوء، وقد أذهب عني المقام هنا أي احتمالات لروع أو قلق:

- "وما العمل؟".

- "ربما من الأفضل أن تهربا".

قالت الشجرة:

- "لا تغادرا قبل أن يكتمل التحول.. ومعكما غصن مني، والطفلان".

الرجل قال:

- "عندما يتم الأمر، سأهرِّبكما عبر مسار سري".

حمزة قال لنا:

- "اجلسا واهدآ.. ولا تتحركا قبل أن تتما دوركما".

سألته:

- "وماذا عنك؟".

- "عندما يأتون، سأخرج لهم.. لدي القدرة على تعطيلهم حتى يتم التحرك".

ياسمين قالت:

- "وبعدها؟".

لم تحتج لجواب سوى نظرة من حمزة حملت الكثير، فجرت دموعها:

- "لا جنة دون نار".



هكذا قال حمزة، فاكتشفت أن الروع يذهب هنا، لكن الحزن يبقى. فربما الحزن شعبة من شعب الحكمة.. وقد دفعني الحزن لأن ألقي بجسدي بين ذراعي حمزة في معانقة أخيرة.

***



الفتى يحكي

حدث اللقاء على السطح. لم أحتج للتوغل في عالم الأحلام، فقد وجدت "بدر" في سرداب الألوان السبعة:

ـ "أنت إذًا تبحث عني، كما أبحث عنك".

قلتها بابتسامة ودودة، حاول بدر مجاراتها، ولكن ابتسامته خنقها الغيظ:

ـ "أنت من بدأ بالعداوة".

حافظت على الابتسامة:

ـ "أنت المبتدأ والمنتهى يا بدر.. أنت الفاعل والمفعول به.. أنت المتهم والقاضي.. فلا تلومن فيك سواك".

ـ "كان بإمكانك إنقاذي، إن تركتني ألقاها".

ـ "كان بإمكانك إنقاذ نفسك.. فأنا ما فعلت سوى أن واجهتك بها".

مررنا لحظتها باللون الأزرق، فهدأت ملامحنا، واسترخت الأبدان، فحلّقنا خفافًا في فضاء السرداب..

- "الموت قادم إليك يا حمزة".

- "بل الحياة قادمة إليّ تسعى".

- "ارحلوا تسلموا.. سينسوكم إن وجدوا الشجرة".

- "إن نسونا فلن ينسوا خيانتك.. لن تصير منهم يا بدر أبدًا".

بلغنا اللون السماوي، فانهمرت دموع بدر، وتملكني صفاء بارد..

- "سامحني يا حمزة.. سامحني؛ لقد دمرت حياتك".

- "لقد بعثتني يا بدر دون أن تقصد".

- "أنا حقير.. مجرد دودة أرض حقيرة.. أنا لا أستحق سوى الوطء بالنعال".

غمرنا اللون الأخضر، فاحتضنت بدر:

ـ "لا جنة دون نار".

ـ "ولا جحيم دون نار.. فأي نار هي الآتية".

ـ "إنه اختيارك يا صديقي.. فاسعَ".

ـ "دلَّني".

أتى اللون الأصفر، فتباعدنا..

ـ "اسعَ".

ـ "دلني".

ـ "اسعَ.. لا نجاة دون سعي".

بعدها استيقظت على وجه علي، وصوته يخبرني:

ـ "لقد تم التحول".

نهضت عن الأرض.. للمرة الأولى منذ أعوام أنام وجسدي مستسلم للجاذبية.. كان الليل قد حل، وكان

القروي المهيب بجوار الشجرة، يربتها بعينين محمرتين حزنًا..

- "لقد اختفى".

نظرت إلى ما يعنيه، فلم أجد أثرًا لنقوش بأشكال بشرية.. فقط لحاء متشقق، كأي شجرة عجوز.

من خلفي، قالت ياسمين:

- "ماذا نفعل الآن؟".

قلت:

- "ستزرعان الطفلين كما طلب منكما".

لحظتها، تعالت طرقات على باب القاعة.. فتح القروي المهيب الباب، فكانت ابنته، همست له في أذنه بكلمات، فتغير وجهه، والتفت ليواجهنا:

- "إنهم هنا.. سيارتا شرطة تقتربان من الدار".

قلت لرفيقيّ:

ـ "التزما بدوركما".

غادر القروي المهيب القاعة، ثم عاد مسرعًا وفي يده فأس صغير، أعطاه إليّ:

ـ "اقطع فرعًا منها".

تركت دهشتي تنسال مع الكلمات:

ـ "أنا؟! من الأفضل أن تفعل أنت ذلك".

قال الرجل:

ـ "لا أستطيع.. لا تنس أن هذه الشجرة بمثابة جد لي".

ولكنه أمر كالقتل.. أي قساوة قلب أحتاجها لكي أضرب بفأسي تلك الشجرة.. ربما هي تبدو الآن كشجرة عادية، ولكني لم أزل أرى بداخلها أرواحًا.. أرواح القتلة والمقتولين.. أرواح الأجداد والأحفاد.. روح أبي.. بوابة أرض العجائب، فكيف تطاوعني يداي أن أمسها بسوء؟! لهذا مررت الفأس إلى علي..



ـ "هو دورك إذًا".

تناول علي الفأس مستسلمًا، ثم سألني:

ـ "وماذا ستفعل أنت؟"

ـ "سأخرج لهم".

ياسمين صرخت:

ـ "كلا.. لن تخرج".

قلت حاسمًا:

ـ "لكل دوره.. ويجب أن نلتزم بأدوارنا.. خذا فرع الشجرة، والطفلين، واذهبا إلى حيث يجب أن تزرعوهما".

ثم التفت إلى القروي المهيب، وكقائد حربي، قلت:

ـ "أخرجهما بأمان من هنا، وأنا سأعطل الشرطة".

ـ "لن تقدر على هزيمتهم".

- "لن أهزمهم.. فقط سأعطلهم.. وعندما يتجاوزوني، لن يجدوا في الدار شيئًا، سوى شجرة عادية".

قال علي:

- "وكيف تظن أنك ستفعلها؟ أنت لست سوبرمان؟".

ابتسمت..

- "كما أنني لم أعد ذلك البالون الذي يتقاذفه الهواء، ويجاهد للسباحة في الفضاء.. انظر إليّ.. أنا أقف على الأرض.. لقد عاد إليّ الثقل.. قدرتي على الطيران نابعة الآن من إرادتي، لا من تنافر مفروض مع الأرض".

قلتها - وكدليل مادي - ارتفعت إلى منتهى القاعة.. توقفت فوق رؤوسهم، أستنشق هواء الليل، وأتأملهم من عليائي بزهو، وقلت:

- "إن قدّر لنا أن نلتقي، فسنلتقي".

ارتفعت أعلى، فناداني علي:



- "يا حمزة".

توقفت، وأرسلت النظرات إلى صاحبي، فتابع علي مبتسمًا:

- "لا جنة دون نار".

ابتسمت، ولوحت لهم مودعًا، ثم اندفعت خارجًا،عبر واحدة من نوافذ القاعة.

***

لتسبقني كلماتي إلى أرض العجائب.. أشعل يا أبي شمعة تضيء لي بدايات الطريق، واحفر لي جحرًا بين جذور شجرة سنديان عتيقة، وافرشه لي بكل أصناف سحرك، واصنع لي فراشًا من ألعابك الصغيرة.. فأنا في الطريق يا أبي، ولن أتأخر أكثر.

من مخبأي العاري، وسط ظلام ليلة بلا قمر، أحلق فوق الدار مرتقبًا.. من مسافات أراهم يقتربون. سيارتا شرطة تتقدمان، تتوقفان أمام باب الدار.. يهبط منهما ضابط وبضعة جنود. يرص الضابط جنوده وكأنما في



حالة حصار للدار.. البوابة، والنوافذ المغلقة تواجهها فوهات البنادق المتأهبة. اكتمل تشكيل القوة الصغيرة على الأرض، في انتظار أمر الضابط. كذلك كنت أنا متأهبًا للارتجال. قادرًا الآن على محاكاة الانقضاض الخاطف لأصدقائي النوارس. انقضضت على الأرض أحمل حجرًا ثقيلًا.. ارتفعت بصيدي، وعند نقطة الاختفاء عن الأنظار، ألقيت الحجر، ليحط على رأس أحد الجنود ليفتتها.

أهي جريمة قتل؟ أيجعل مني هذا قاتلًا؟ بالتأكيد.. ولكني لا أبالي.. أنا لم أعد أنا يا أبي. وكلما اقتربت من أرض العجائب، وشممت رائحتها، انسلخت عن ذاتي، وانسحقت تحت وطء الأحلام وشيكة التحقق. أنظار الجنود، وفوهات البنادق اتجهت تلقائيًّا إلى قمة السور المحيط بالدار، لكنهم بالطبع لم يجدوا أحدًا. الضابط صرخ:

- "احتموا بالسيارتين".

تحرك الجنود إلى وراء السيارتين، متخذين منهما حاجزًا أمنيًّا. الضابط طلب مكبر الصوت، فناوله له أحد الجنود. وضعه على فمه، وقبل أن ينطق، تناثر على وجهه دم الجندي المجاور له، من رأسه المسحوقة بحجر آخر ألقيته في تلك اللحظة، مرتكبًا جريمة القتل الثانية.. لكنه لم يعد في ذهني يحمل صورة القتل؛ فالقتل مرتبط بانتزاع روح، وأنا لم أر ما يدل على امتلاكهم لأرواح؛ هم أصحاب العقول القاصرة، وسيظلون كذلك إلى الأبد.

جن جنون الضابط، فصرخ:

ـ "من أين تأتي تلك الأحجار؟!".

تلقائيًّا، توجهت أنظار رجاله نحو السماء.. أحد الجنود أشار إلى نقطة بعيدة، النقطة التي كنت أشغلها منذ ثانية، قبل انطلاقتي الأخيرة..

ـ "هناك.. شيء يطير".

الضابط صرخ به:

ـ "ماذا تقصد أيها المخرِّف؟".

جندي آخر قال، وفي صوته رعشة:

ـ "هل سمعتم عن الرجل الطائر؟".

الضابط صاح:

ـ "لا أريد أن أسمع المزيد.. فقط تأهبوا".

لكن الجندي الأول أشار مباشرة إلى موضع تحليقي، وصاح:

ـ "هناك".

هذه المرة رفع الضابط رأسه، فالتقت نظراتنا رغم الظلام.. لقد كشف أمري، ربما من الأفضل أن أبتعد. ولكني لم أتوقع سرعة رد فعله، إلا حين سمعت أزيز مرور رصاصته الأولى بجوار رأسي. ألقيت عليه حجرًا كان في يده، في حين كان تركيزي منصبًّا فقط على النجاة، فلم يصب الحجر أحدًا.. ارتفعت إلى أعلى

بأقصى سرعة أمتلكها، مبتعدًا عن مسار الرصاصات الغاضبة.

الضابط صرخ في جنوده:

ـ "أطلقوا النار".

فاتبعوه.. نصبوا الفوهات لأعلى، وأمطروا السماء برصاصاتهم.. راقصت فوهاتهم الهواء، لتطال الرصاصات كامل غلاف السماء، وكأنما يريدون تمزيق السحب والريح وظلام الليل.

في النهاية صرخ الضابط:

ـ "توقفوا".

كل العيون تمسح السماء بحثًا بلا جدوى.. لكني لم أكن هناك؛ كنت قد انخفضت قرب الأرض، عند نقطة بعيدة عن متناول الأبصار. وحين تعلقت كل الاعين بالسماء، تحركت.. انقضضت على ارتفاع منخفض، تحت مستوى أبصارهم.. قبضت على جندي من بين

ذراعيه، وارتفعت به.. صرخ الجندي، فانتبه زملاؤه. الضابط صرخ:

ـ "أطلقوا النار".

الجنود ترددوا لثانية، كانت كافية لأن أترك لهم زميلهم يسقط من السماء، ليصطدم بالأرض متهشمًا.. حينها رفعوا الفوهات من جديد، وعادوا لمحاولة قتل السماء.. هذه المرة كان الحظ حليفهم، أو ربما كان حليفي أنا؛ كان الثقل يغمرني، فيبطئ اندفاعتي الهاربة.. لم أدر ما حدث، إلا وأنا أسقط. حاولت جاهدًا أن أواصل التحليق.. انطلقت قاصدًا حزام أشجار قريبًا، ولكن بعد شعور الثقل، جاء شعور الألم. هناك عند الصدر، قرب موضع القلب.. مددت يدي فشعرت بلزوجة الدماء. استعد يا أبي، فها أنا قادم.. كنت قد ابتعدت مسافة كبيرة عن الدار والضابط وجنوده.. عندها تركت نفسي، فاقدًا القدرة ـ وربما الرغبة ـ على المقاومة، فسقط الجسد فوق العشب الندي. تمددت على ظهري أتأمل السماء..



لقد حانت اللحظة.. تمنيت لو استطعت البقاء هناك، في حضن الهواء والبرد. وأنا أصاحب النوارس صباحًا، فكرت أن موتي سيكون في الهواء، عند السحب الباردة. وحين أموت، سيفقد جسدي أخر ما بقي له من وزن، فأحلق إلى ما لا نهاية، وربما أتجمد قرب القمر، فأصير قمرًا للقمر! لذلك كرهت الموت هنا، كما كرهت الأرض وترابها.. قطع الطريق بين بصري والسماء وجه لفلاح شاب، بشارب لم يزل يحفر طريقه، وقف فوق رأسي يتأملني ويبتسم، قبل أن يجلس متربعًا بجواري:

- "يومٌ جميل للموت، أليس كذلك؟".

ابتسمت..

- "هنا نلتقي".

ابتسم الشاب..

- "أنت تعلم أنه ليس لقاءنا الأول".

- "لقد تقابلنا نهار اليوم.. حين كنت لم تزل جزءًا من شجرة".

ضحك الشاب..

- "لم أتوقع أن تعرفني".

- "وأنا لم أتوقع أن تكون رفيقي إلى أرض العجائب.. لقد توقعت أن يكون أبي.. هكذا وعدني".

تمدد الرجل ملاصقًا لجسدي:

- "وما أدراك.. ربما أنا أبوك، في زمن آخر، أو في عالم آخر".

تنبهت لحظتها لتلك الحقيقة؛ لقد مات أبي بين يدي، فهل أنا قاتله بشكل ما؟ هل قتله نزقي، وأحلامي، واندفاع طفولتي؟! هل قتلته رغبته الدائمة في إسعادي، ولو على حساب صحته، التي علمت أمي بعد وفاته أنها كانت معتلة منذ زمن، وكان يقاوم؟

- "هل أنا كذلك قتلت أبي؟".

قال الشاب..

- "لا أعرف.. ما أعرفه أني لم أقتل أبي.. أنا بعثته".

هززت رأسي معلنًا الفهم..

- "وماذا الآن؟"

قال الرجل:

- "الآن نذهب".

***

لتسبقني كلماتي إلى أرض العجائب.. استعد يا أبي، فها أنا في الطريق، وها هو الضوء يسطع في عيني، من موضع انبعاث الموسيقى المرحة، وغناء أليس وأصدقائها ترحيبًا بقدومي.

***

الولد يحكي

عندما غادر حمزة من النافذة العالية، ساد بيننا الصمت، وعجز الحزن لثوان، قطعها صاحب الدار..

- "لا وقت الآن.. يجب أن نتحرك".

قطعت فرعًا من الشجرة بضربتين من الفأس، ضربتين فقط، ولكنهما قاومتا الكثير من ارتجافات البدن. لقد كانت المهمة أشق من تخيلي، وكأني بالفعل أجتز قطعة من لحم حي.. ياسمين عاونت الطفلين على النهوض. سألتهما للتأكد:

- "أنتما تعرفان ما يجب فعله، أليس كذلك؟".

هزا رأسيهما معًا بالإيجاب، فاحتضنتهما ياسمين.. تبدي نحوهما مشاعر كالأمومة، حتى أن عينيها تدمعان، فتثيرا إشفاقي.. أربت كتفها:

- هيا بنا.

قادنا صاحب الدار إلى باب صغير في ركن القاعة.. فتح الباب بمفتاح معلق في رقبته، فبدا الظلام من خلفه. أخرج هاتفه، وأضاء كشافه، والتفت إلينا:

- "اتبعاني".

خضنا وراءه الظلام.. أتقدم أنا في إثره، تتبعني ياسمين والطفلين.. قطعنا سردابًا مظلمًا خانقًا. السرداب كان طويلاً، وله انحدار بسيط في بدايته، فأدركت أننا الآن تحت الأرض. ياسمين دفعت الطفلين أمامي، وقبضت على كفي، كانت ترتجف خوفًا، فعصرت قبضتها مطمئنًا.. بعد دقائق قليلة، والكثير من الجهد، وتحمل الاختناق، ورائحة العطن، ارتفع بنا السرداب، لينتهي بباب صغير، فتحه الرجل بمفتاح آخر معلق في رقبته، فقادنا إلى حظيرة للبهائم.. ياسمين لوهلة تأففت من الرائحة ووطء الروث الذي يغطي الأرض؛ لولا أن شددت أكثر على كفها، فتشجعت.. عبرنا خلف الرجل بحذر، مخافة الاحتكاك بالحيوانات الضخمة المتزاحمة حولنا، حتى بلغنا باب الزريبة.. فتحه الرجل بمفتاح أخرجه من جيبه هذه المرة،



فخرجنا أخيرًا إلى الهواء.. كنا على أطراف حقل للبرسيم، تمر أمامنا ترعة متوسطة الاتساع. الرجل قال:

- "هنا نفترق".

شرد قليلًا، ليتابع:

- "هنا تنتهي علاقتي بالشجرة، وما وراءها".

انحنى يحتضن الطفلين، ثم احتضنني، كشقيقين يفترقان:

- "كان الله معكما".

قالها، وعاد إلى الحظيرة، وأغلق بابها خلفه.. عندها سمعنا صوت طلقات الرصاص. ياسمين صرخت، فأمرتها بالصمت. وقفت متوترًا لا أدري ماذا أفعل.. هل أعود لحمزة؟ هل أفسد كل شيء من أجله؟ لكن المسئولية أكبر من معضلات العاطفة، التي ألقتها ياسمين في وجهي، حين سألت بصوت خائف:

ـ "ماذا سنفعل الآن؟".

بثبات وليد اللحظة، أجبتها:

ـ "سنمضي في الخطة دون تغيير".

***

قطعنا بين الحقول مسافة كبيرة على هدي من إرشادات الطفلين، حتى لاحظت الصوت.. توقفت منصتًا، ثم قلت لياسمين:

ـ "أنصتي".

أنصتت ياسمين بدورها، فأدركته:

ـ "وشيش البحر".

لحظتها نطق الطفل للمرة الأولى:

ـ "لقد اقتربنا".

واصلنا المسير حتى بلغنا الحد الشمالي لأخر الحقول.. عندها توقف الطفلان، فتوقفنا.. نظرنا إليهما منتظرين الإرشاد، فقال نوح:

- "هنا المكان المختار".

ياسمين تساءلت:

- "وماذا الآن؟".

أجابتها جودي:

- "هنا نبدأ تحولنا".

من جيبها أخرجت منديلا مطويًا.. فتحته وأخرجت منه خصلة شعر بيضاء.. حفرت بيديها في الطين، ووضعت الخصلة، ثم تربعت على الأرض، واضعة قدميها في الحفرة الدقيقة مع الخصلة.. تمامًا كما فعلت، فعل نوح.. أخرج خصلة بيضاء أقل طولًا، دفنها في الأرض، ووضع قدميه معها:



- "الآن، تغرسا فرع الشجرة بيننا، وتبنيان الطين حولنا".

جرت دموع ياسمين:

- "لماذا نحن؟ لماذا أنتما في حاجة لنا أصلًا؟".

أجابها نوح:

- "نحن الشجرة الأخيرة.. آخر نبت من نوعه.. نحن من سنحيا إلى الأبد، حتى يحين أوان التحول للدنيا".

أكملت جودي:

- "نحن بحاجة إلى أبوين.. أبوين يستحقان بنوّتنا".

تبادلت النظرات مع ياسمين.. بشكل باغتني، ألقت رأسها على كتفي وأجهشت في البكاء، احتضنتها، فلم تزدها لمساتي سوى حزنًا، فبكت أكثر.. انتظرناها حتى انتهت، ورفعت رأسها، مكفكفة دموعها. قالت كلمة اعتذار غير واضحة المعالم، فتركتها وانحنيت أحفر جزءًا من الطين، وأغرس غصن الشجرة في موقع



وسط بين الطفلين.. اعتدلت، ووضعت ذراعي فوق كتف ياسمين؛ لأهيئها لما هو قادم.. قبض الطفلان على الغصن، وابتسما.. قال الطفلان:

- "والآن.. اجعلا الطين يعلو فوقنا".

وأكملت جودي:

- "واحكوا لنا حكاية لننام".

أضاف نوح:

- "ولا تغادرا، حتى تسمعا منا أول طرح لحكمتنا".

النهاية

***